388

HARLEQUIN

روايات أحلام

قلب من رصاص

مارغريت واي

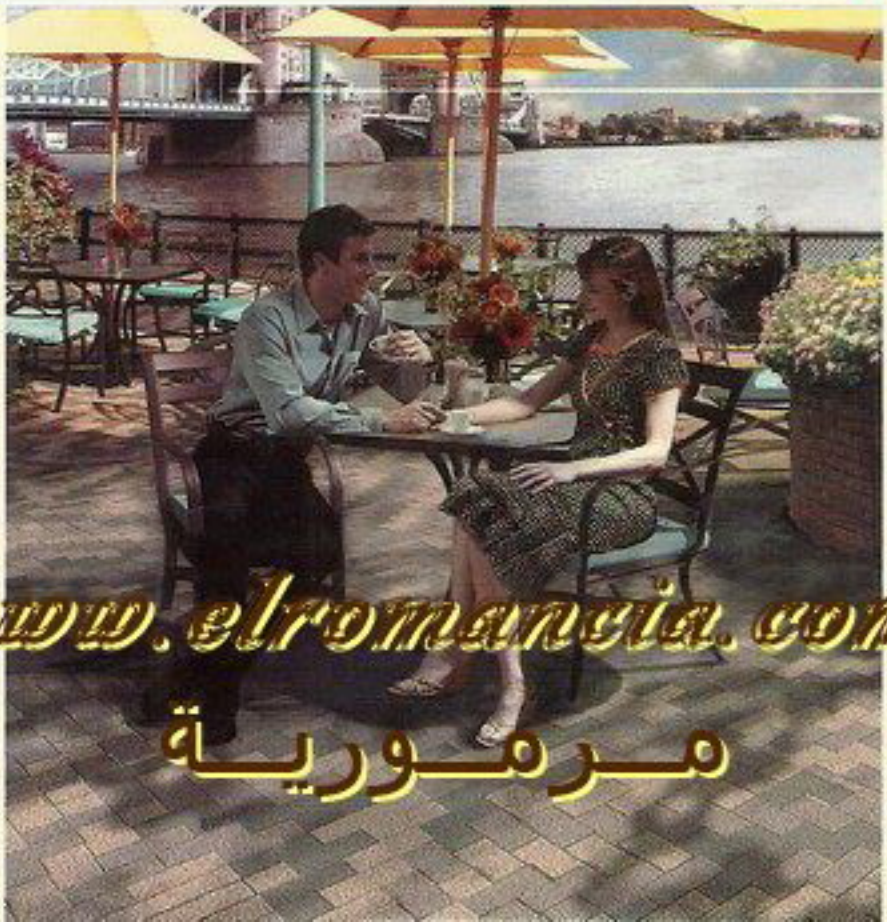

www.elromancia.com
مرمورية

قلب من رصاص

لقد عاد الرجل الذي أحبته على الدوام ...
غادر بروك تايسون موطنه في البراري ، تاركاً مزرعة «كوميرا كروسينغ» دون نظرة إلى الوراء . لكن شيلي لوغان ظلت سنين تخفي حبها له ... إنها لم تنس قط ذكرى خفقة قلب يتيمة عاشتها معه ...
وها هو بروك يعود الآن إلى كوميرا مطالباً بإرثه . كان الحب آخر ما يفكر فيه ... حتى رأى شيلي ، شيللي التي تفتحت لتصبح امرأة رائعة الجمال .
لكن بروك لن يدع شيللي تنسيه هدفه ... فهو قد عاد للحرب وليس الحب . وهناك معركة عليه أن يفوز بها ... فهل يرضيه أن تكون الغنيمة عروساً ؟

2500ل.ل	1دينار
75ل.س.	10ريال
1.5دينار	8جنيه
750فلس	15درهم
10دراهم	2دينار
10ريال	1ريال

ISBN 9953-15-356-6

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
outback surrender
First published in Great Britain 2003
Harlequin Mills & Boon Limited
© Margaret Way 2003
Translation © Dar El-Farasha - 2006
ISBN 9953 - 15 - 356 - 6

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

www.elromancia.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequinالعالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequinهي رائدة الروايات الرومنسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيّقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

مارغريت واي

إنها أسطورة في عالم الروايات العاطفية وقرّائها. تنشر لها روايات منذ ٣٠ سنة. عرفت بشخصياتها الشغوفة القوية ووصفها الوجداني المعبّر لطبيعة أستراليا.

ولدت مارغريت وترعرعت في مدينة بريسبين القائمة على ضفاف نهر، وهي تقيم الآن على مقربة من مدينة «موريتون بي» في مقاطعة «كوينزلند». تعشق هذه الكاتبة وصف بلادها وصفاً حيّاً للقرّاء.

قبل أن تنصرف للكتابة كانت مارغريت تحترف العزف على آلة البيانو وتعطي دروساً في العزف والغناء وترافق كبار المؤلفين والمغنّين. وهي تعزف حتى الآن بشكل جدّي. إلى ذلك فهي تهوى جمع التحف والأعمال الفنية والعناية بحديقتها.

١ - رمز الشجاعة

سارت شيللي على الرصيف بخطوات سريعة خفيفة تناقضت مع ما تشعر به من تعب. إنه عصر يوم الجمعة، ولم تكن قد أنهت مشترياتها من مدينة كوميرا كروسينغ. مقابلتها الأولى مع مدير المصرف لم تكن سيئة لكن مقابلتها مع محامي والدها . . . وهو المحامي الوحيد في المدينة، لم تكن جيدة. بعدئذ، طلبت من المخزن العام المعروف بجودة بضاعته إرسال مواد غذائية إلى المنزل، وهذا أمر ضروري للغاية لإقامة حفل صغير لسيّاح يابانيين بعد شهر. يُفترض أن تصل هذه المواد إلى المركز بالطائرة قبل وصول الضيوف.

كانت قد خزنت كافة المواد غير القابلة للتلف، لكنها ستشتري الآن بعض الأغراض الخاصة لترفع معنوياتها، مثل الصابون والشامبو والكريمات وأدوات الزينة وما شابه. لا تنفق عادة على نفسها إلاّ القليل، لكنها تحرص على العناية بشعرها وبشرتها، فهما اللذان سيرافقانها بقية حياتها.

كانت مرهقة للغاية حتى بالنسبة إلى فتاة مليئة بالحيوية مثلها. وكانت تجرّ قدميها جراً. لقد بدأت رحلتها من مركز وايبورن قبل الفجر، وقضت ثلاث ساعات على طرقات البراري الوعرة، قبل أن تصل إلى «كوميرا كروسينغ»، المدينة الأقرب إلى الحضارة في هذه المنطقة من العالم.

كانت شغوفاً بموطنها الصحراوي، فهو الوحيد الذي يوفّر لها هذا الشعور بالحرية والسكينة . . . إنها أرض أبدية يقدّسها السكان الأصليون. كانت تجد متعة في بيئتها غير العادية . . . هذه الصحراء

www.elromancia.com

النابضة بالحياة بألوانها الخزفية، ورمالها الحمراء المتموجة وصخورها الخالدة. ما من مكان يماثل البراري في غموضها.

كما إنها تبقيها قرب سين، ملاكها الحارس، أخيها التوأم. لقد غرق سين حين كانا في السادسة، وهي لا تزال تتذكر صدى صوته العذب يناديها شيل . . . شيل . . . شيل . . . بينما هي تركض بطيش في أنحاء المنزل والحديقة.

كان سين يلجأ إليها دوماً طلباً للحب والطمأنينة والسلوى بدلاً من أختهما الكبرى أماندا أو حتى أمهما. حتى بعد ذلك الحادث المريع الذي لا تتذكر منه سوى الفوضى والأصوات والصراخ، ما زال سين رفيقها.

لقد قدّر لسين أن يبقى دوماً صبياً صغيراً رائع الجمال، بخصلات شعره التي تشكّل هالة حول رأسه، وفمه الأشبه ببرعم وردة، وعينيه البراقتين كجوهرتين.

كان بينهما رباط لا ينفصم أبداً . . . ولا حتى بالموت. كانت ذكرياتها عن أخيها الصغير مزيجاً من الحلاوة والمرارة، لكن قوة وسحر حبهما ما زالا مستمرين حتى اليوم.

أخذت تسير بنشاط، ملقية الدعابات المرحة هنا وهناك، فكل شخص في المدينة يعرفها وتعرفه.

لم تكن تنوي العودة إلى وايبورن الليلة إذ لم يعد لديها القوة الكافية لتقود بعد تجوالها في أنحاء المدينة لساعات.

كانت بشرتها لغزاً كبيراً بالنسبة إليها وإلى الآخرين، فليس عليها نمشة واحدة بالرغم من أنّ شعرها أحمر غير قابل للترويض. عليها أن تشكر موبرا، جدتها الإيرلندية التي أورثتها بشرتها هذه وعينيها الخضراوين، فضلاً عن الطبع الإيرلندي الحار عندما تثور.

ستنزل في الفندق الوحيد في المدينة والذي يملكه مايك دونوفان، حيث الطعام لذيذ والأثاث نظيف ومريح. كانت متلهفة للاستلقاء في مغطس من المياه الدافئة، إنما عليها أولاً أن تشتري بعض الصابون العطر.

وبينما هي واقفة في الصيدلية، تحاول أن تختار بين نوعين، أحدهما بعبير الياسمين والآخر بعبير الغارديني، شدّت يد إحدى خصلات شعرها، بخشونة أدهشتها، إذ كانت متأكدة من أنها تحدثت إلى الكل في هذه المدينة الصغيرة.

شعورها البالغ بالإثارة أدار رأسها. إنه بروك تايسون بلحمه وشحمه . . . ما زالت رجولته وحيويته واضحتين كما انطبعتا في ذهنها.

كان رجلاً رائعاً، لكن لمحة الكآبة لم تمت فيه، فقد أحسّت بها بوضوح وهي تواجهه. لم تره المدينة لا بل المنطقة كلها أو تسمع أخباره منذ سنوات رغم أنه واحد منهم.

كان دانييل بروكواي تايسون أحد أكثر الشبان الذين عرفته براري الجنوب الفسيحة جرأة وعنفاً. وقد وجد كافة الطرق المدهشة للعيش في حركة دائمة. كان وهو غلام، يذهب إلى الصحراء أحياناً حيث يمضي أياماً، وعندما يعود إلى بيته في «مولغاري» لا يتكلم عن مغامراته، فينهال عليه جده بالسوط. و«مولغاري» هي المركز الرئيسي في سلسلة مراكز كينغزلي للمواشي، وكان كينغزلي العجوز، جد بروك يديرها، وهو من كان ينفذ قصاص الجلد، لكنه لم يستطع قط أن يحطم بروك.

هتف بروك وعيناه اللامعتان تتأملانها: «لابد أنك شيللي لوغان، لم تتغيري أبداً».

- بل تغيرت بكل تأكيد. إنه عمل الزمن.

- امنحيني دقيقة وستتوضح لي الصورة.

وضحك مستمراً في تفحصها: «كيف حالك؟».

عندما رحل، كانت مجرد طفلة جميلة وبريئة. لم ينسَ بروك توأم لوغان الفاتن ومأساته. ما من شخص هنا لا يعرف كيف فقد سين لوغان الصغير حياته.

فوجئت شيللي بفيض الدهشة والسرور الذي تملكها لرؤيته: «أنا بخير يا بروك. من أي مكان في العالم عدت؟ جلت في المدينة طوال النهار ولم

يخبرني أحد بعودتك».

توترت ملامحه التي نحتها نحّات ماهر: «هذه ليست فكرتي بل فكرة جدي الحبيب، إذ يبدو أنه لم يعد يطيق تباعدنا. كيف أرد طلبه هذا؟ لقد طردني منذ خمس سنوات تقريباً، وها هو الآن يرسل هذا الطلب العاطفي الذي لا أستطيع رده».

خطرت في بالها فكرة مفاجئة: «هل هو مريض؟ يبدأ الناس بالتفكير في التسويات العائلية في هذه الأوقات».

أجاب متهكماً: «إنه يموت ككل بشريّ فانٍ. لم يكن يظن نفسه طبعاً واحداً من البشر. حسناً، لن أفشي هذا الخبر وإلاّ ستعلم المدينة كلها في يوم واحد».

رفعت شيللي رأسها تنظر إليه: «لا أدري ماذا عليّ أن أقول، يا بروك. لطالما ظننت جدك قاسياً معك. والمنطقة كلها تقول ذلك».

- كان كذلك بالتأكيد، لكنني كنت أنتقم منه. وكان الانتقام يسرّني للغاية لكن أمي المسكينة لم تكن تفعل.

- كيف حالها؟

أشاح بنظره بعد أن بدت في عينيه نظرة مضطربة منزعجة: «لم تأت معي إلى الوطن، يا شيلل... لقد دفنتها في إيرلندا، بلاد أجدادها. توفيت بالسرطان».

اغرورقت عينا شيللي، ذات القلب الحنون، بالدمع: «بروك! أنا آسفة جداً. أعلم كم كنتما متحابين».

- وهكذا أصبحت وحيداً في الحياة. لقد تلاشى أبي كالدخان وأنا في السادسة، ولا يمكنني أن أعتبر ما تبقى من أسرتي، أسرة لي بل أعداء... أو على الأقل متآمرين. إبن عمي فيليب وأمه العزيزة فرانسيس، التي لطالما كرهتني.

فقالت باكتئاب: «أقسم أنها معجبة بك».

- أحقاً؟ لم يخطر لي هذا قط.

وتأملت عيناه الفضيتان اللامعتان ملامحها.

شعرت بجسمها يتوهج فجاذبية بروك كاسحة، وقد كانت مفتونة به للغاية ذات يوم.

كانت عذراء في السادسة عشرة بينما هو محنك بحكم سنواته الواحدة والعشرين. لقد عانقها ذات مرة، وإن كان هذا لا يعني أنه يتذكر. حدث ذلك في حفلة راقصة بين الأشجار، أول حفلة تحضرها. لقد انقض عليها، يدفعه إلى ذلك البهجة والعبث والطيش ثم أخذ يدور بها وقدماها مرفوعتان وسط الهتاف والضحك. لم تنس قط إثارة أول عناق تلقته في حياتها، لكن بروك لطالما أحبّ الفتيات، وهنّ يحببنه.

قالت متأملة: «أنت بطل فيليب من بعض النواحي. وقد كان يتشوّق لأن يصبح مثلك... شجاع وجريء، لا تخاف جدك. أنتما قريبان، ويجب أن تكونا صديقين».

- هذا مستحيل يا شيللي. الجد كينغزلي والعزيزة فرانسيس أخذا يقارنان بيننا. من الذي سيكون الوريث؟ هل هو من يتحدّى الأوامر أم الذي يطيع كغيره؟ هل ما زال فيليب يتودد إليك؟

طرح سؤاله هذا فجأة، وكأنه لا يحب الفكرة.

- أرح نفسك فنحن صديقان فقط، ونحن نعرف بعضنا بعضاً منذ زمن طويل، كما أن والديّ موافقان عليه. ما أجمل أن أراك، يا بروك. أنا مسرورة جداً لعودتك.

ابتسم لها وقد ظهر عليه السرور لابتهاجها وإخلاصها: «لطالما كنت فتاة صغيرة حلوة».

وتدفقت الذكريات بشكل غير متوقع: «أتذكّر أنني عانقتك مرة، أليس كذلك؟».

- كان من طبيعتك أن تعانق كل الفتيات.

- لا أتذكر أنني عانقت أختك. ألم تتزوج بعد؟

رفعت حاجبيها بسخط ساخر: «لا، وأنّى لك أن تعرف أنني لم أتزوج

www.elromancia.com

بعد؟».

- ما زلت تبدين كبرعم وردة. أخبروني أنك تديرين نوعاً من مضافة للسياح خارج وايبورن.

- نعم، وأنا فخورة بهذا.

كان صوتها هادئاً واثقاً، برغم مظهرها غير الناضج: «لقد استغرق ذلك وقتاً، لكننا نهضنا على قدمينا الآن. ولديّ خطط كثيرة. أبواي المسكينان لم ينسيا قط موت سين ما جعلهما متعبين يائسين من الحياة».

- أنا أعرف معنى الحزن على الميت، لكني واثق من أن أماندا عون كبير لك.

قال هذا متهكماً، فهو يعلم أن أختها الكبرى أنانية لا تحب سوى نفسها، وأنها جميلة تحب المغازلة.

لكنها أجابت بوفاء: «لا أستطيع العمل من دونها، فأماندا تتألق حيث لا يمكنني ذلك».

سألها مشككاً: «وأين عسى أن يكون هذا؟».

- إنها تعزف على البيانو وصوتها جميل. فهي تغني الأغاني الريفية والغربية والضيوف يحبون ذلك كما أنها جميلة جداً وأنا واثقة من أنك ستتذكر ذلك...

نظر إليها طويلاً: «وأنت لست كذلك؟».

- كفى تملقاً يا بروك تايسون، فأنا لا أعرف كيف أواجه ذلك.

قال مازحاً: «بل تعرفين، فلطالما كنت متزنة. كيف استطعت إبعاد النمش عن وجهك؟».

الجاذبية تتسرب من هذا الرجل بسهولة. وشعرت شيللي وهي ترى عينيه متسمّرتين عليها، وكأنّ دلواً من الماء البارد سقط عليها وقالت: «ليس لي أيّ فضل في ذلك، يا بروك. هذا ما ورثته، كم من الوقت ستبقى معنا هنا؟».

قال وقد تغيّر مزاجه فجأة: «بقدر ما يمكنني أن أحتمل».

لكنه بقي رقيقاً حساساً ما حبس أنفاسها وتابع يقول: «جدي على وشك لقاء ربه، وهو يظن أن الوقت حان لتقويم بعض الأمور. كانت أمي ابنته الوحيدة وكان شغوفاً بها قبل أن يأتي أبي ويتحابا. لم أر قط أي دليل على حب جدّي لابنته، وإنما رأيته فقط يبحث عما يكدّرها ويذلّها. كما أن عليك أن تعلمي يا شيللي أن ثروته ليست من كدّ يمينه فقط، فقد أحضرت جدتي بروكواي معها عند الزواج ثروة. وثروة بروكواي هي التي أعالتنا أنا وأمي في البداية قبل أن أصبح قادراً على دفع نفقاتنا. لقد تركنا كينغزلي نرحل مفلسين. وكما قلت أنت، كان رجلاً قاسياً. كل ما في الأمر هو أنني استطعت تحمّل قسوته أكثر من أمي المسكينة».

فقالت وهي تحس بغضبه ومرارته: «لا بدّ أنه أرسل بطلبك الآن ليلتمس منك الغفران».

- سيخيب أمله إذن، يوم الحساب قادم ليدين ريكس كينغزلي.

سألته بهدوء: «ماذا فعلت في غربتك تلك؟».

هز كتفيه وأجاب: «العمل، هذا ما كان عليّ أن أفعله ونحن مفلسان. عملت في تربية وتدريب خيول السباق في أهم الاصطبلات في إيرلندا. لا يمكن تصوّر مكان أكثر اختلافاً عن برارينا من تلك الأمكنة».

- إيرلندا! ذلك هو المكان الذي ذهبتما إليه إذن؟ يا له من مكان بعيد. لطالما تساءلت كيف وجد أسلافنا أرضهم الغريبة الجديدة. إيرلندا! كم هذا مثير. لا بد أن أزورها يوماً ما، وهذا عهد أخذته على نفسي. لطالما كنت ممتازاً في ركوب الخيل يا بروك، حتى أنك أصبحت برشاقة وخفة الإيرلنديين. هل أحببت ذلك العمل؟.

لمعت عيناه: «بل عشقته. أنت تعلمين كيف يتعامل سكان البراري عندنا مع الخيول. الإيرلنديون مثلهم. حصلت على عمل جيد واكتسبت مالاً كثيراً وحظيت باحترام أناس أعجبوني، وأمّنت أمي مادياً حتى وفاتها».

- ما من أحد هنا كان يعلم بمكانك.

- لقد قاطعنا جدي تماماً، فرددت له الجميل. ألومه، أكثر من أي شيء آخر، على إدارته ظهره لأمي، فلماذا أرسل إليه بخبر موتها؟

- يدهشني أن تعود إلى موطنك.

أصبح بروك البالغ النشاط والحيوة ذا شخصية قيادية مسيطرة، امتزجت بسحره المألوف. ولمعت عيناه الفضيتان وهو يقول: «أحياناً أتذكر أنني من أسرة كينغزلي من ناحية أمي. إذا كان جدي العزيز يريد أن يعيدني إلى وصيته، وهذا ما يبدو، فلن أمنعه فهذا حق أمي وحقي. وهو «تكفير» عمّا فعله».

- أنت تقيم إذن في «مولغاري»؟ الأمر ليس سهلاً بالتأكيد.

تذكرت كيف كان فيليب وفرانسيس يغاران من مهارة بروك وطاقته، وكيف كان يواجه جّده المتسلّط.

ضحك وقال: «هذا لا يعني أنني أريد أن أرى أحدهم. لم أشأ ذلك. على أيّ حال، مخزن الغلال فسيح بما يكفي لأقيم فيه».

فقالت ساخرة: «لأنك تعوّدت على أن تحبه».

- وما زلت أحبه، يا ذات العينين الخضراوين.

لم تعد شيللي مراهقة صغيرة كما يتذكرها بل نضجت وأصبح لديها إحساس المرأة وقوة ملاحظتها، ولم تعد تخشى البوح بأفكارها. حينذاك كانت أصغر منه بكثير، لكن البرعم تفتح الآن عن وردة فوّاحة.

بقي يحدّق إليها ما جعلها تحبس أنفاسها. وبالرغم من اتزانها غزا الاحمرار وجنتيها.

كان شعرها الأحمر الثائر منسدلاً على كتفيها، وعيناها الجميلتان الواسعتان برّاقتين، وفمها حسّاساً وذقنها جميلة. ولولا خوفه من تعريض صداقتهما القديمة للخطر، لأخبرها أنها تبدو مثيرة إلى حد كبير.

- ما هو قرارك إذن؟

- لا بأس يا شيللي، لقد تغيرت، وكبرت. ماذا تفعلين الآن؟ هل أنت عائدة إلى بيت أسرتك؟

وتذكر كآبة وايبورن، وخلوه من أي مرح.

- غداً. لا يمكنني العودة في اليوم نفسه.

- يا إلهي! هذا ما أراه، أنظري إلى نفسك، فالريح تكاد ترفعك وتقذفك بعيداً. هل ما زالوا يزعجونك ويضيّقون الخناق عليك في البيت؟

هزّت رأسها وقالت بصوت مهذب: «لا تتكلم بهذا الشكل يا بروك. أنا أحب أسرتي. لقد نسينا الماضي لكني سأشعر دوماً بالألم لأنني نجوت، على عكس سين».

- عليك أن تقولي باللوم وليس بالألم. كان حادثاً فظيعاً يا شيللي لكنك كنت طفلة عند حدوثه.

- أعرف هذا، لكنه لم ينفع.

- طبعاً، فمن غير المسموح لك أن تنسي. لنخرج من هنا.

تنبّه إلى أن الرؤوس كلها تلتفت إليهما منذ أن حياها، ولا بدّ أنّ الشائعات انطلقت.

- إلى أين؟ أريد أن أشتري شيئاً من هنا.

- إفعلي. لا بد أنك ستمضين الليلة في الفندق.

- نعم.

لا يزال بروك شعلة من نار ما جعل شيللي تحترق: «كنت سأنام في شاحنة، لكن ميك وجد لي غرفة. ما رأيك في أن نتناول العشاء معاً؟ أرى أن الناظرة المهيبة لمدرسة كوميرا كروسينغ قد فتحت مطعماً. لا غرابة في ذلك لأن كرومبتن لطالما كانت متعددة المواهب».

قالت بحماسة بالرغم من تعبها: «يسرّني هذا يا بروك».

فقال: «ثمة الكثير ممّا علينا أن نعرفه عمّا فاتنا . . . أخبرني فيليب مثلاً أنك فتاته الآن».

سألته بوقاحة: «ولماذا لم يخبرني بذلك إذن؟».

قال مبدياً عداءه لابن خاله: «أنت طيبة معه أكثر مما ينبغي».

تأملته طويلاً، يبدو أن بشرته تعرّضت لأشعة الشمس حتى في إيرلندا الخضراء الضبابية إذ بدت أشبه بالبرونز المصقول ثم قالت: «أليس في ذلك شيء من القسوة؟ إنني أشعر بالأسف حيال فيليب. إن جدك بالغ القسوة معه، كما أن أمه تأمل الكثير منه. وفيليب يتعرض لضغط مستمر لكي يؤدي دوره، علماً أن جدك لا يسمح له بتحمّل أيّ مسؤولية حقيقية».

- عليك فقط أن تكبحي جماحه. لا بد أن الأمر سيكون صعباً على فيليب... فلطالما كان بليد الذهن.

- بينما اعتمدت أنت أسوأ تصرفات ممكنة.

وابتسمت تخفيفاً لوقع كلامها عليه ثم أردفت: «ما زال فيليب، لسوء الحظ، تحت سلطة أمه. سأدفع ثمن هذه، يا بروك، إذا أمكنك الانتظار».

وأسرعت تختار صابون الحمام برائحة الغارديني. ورأى هو ما اختارته فأومأ موافقاً: «أظنك على حق، الغارديني تناسب بشرتك الرائعة».

* * *

لم يكن لديها ثوب مناسب بالطبع، وكان عليها أن تفكر في الأمر من قبل، لكن دعوة بروك لها محت كل فكرة أخرى من رأسها. ولأول مرّة منذ حضرت عرس صديقتها كريستين وميتش كلايرن، تشعر برغبة عميقة في أن تبدو جميلة.

ولكن كيف؟ وعادت تنظر إلى نفسها في المرآة القديمة الموضوعة في زاوية الغرفة.

كانت تركّز على الترتيب والنظافة في ملابسها ليس إلاّ، بعكس أختها أماندا التي تملك خزانة مليئة بالملابس الجميلة. ملابسها اليومية هي ملابس عملية عبارة عن بنطلون جينز وقميص قطني. حدّقت إلى نفسها حالمة. لطالما كان بروك تايسون رقيقاً معها رغم عنفه ومزاجه المتقلب. أما اليوم فبدا رجلاً قادراً على التحكم في نفسه، صلباً وعنيداً، أشبه ما

يكون بجده ريكس كينغزلي نفسه.

وأخيراً، قررت أن تندفع خارجة إلى متجر صغير للملابس حيث كانت قد رأت بلوزة جميلة جداً. والسبب الوحيد الذي منعها من شرائها من قبل هو أن ليس لديها مناسبات كثيرة ترتدي فيها ملابس جميلة غير عملية. كان مظهرها يرتكز على الملابس القطنية، أمّا هذه «البلوزة» فمصنوعة من قماش أصفر رقيق مع بعض الدانتيل، والشرائط. وقد أكّدت لها البائعة أن بإمكانها أن تلبسها على بنطلونها الجينز الأبيض فوثقت بكلامها.

شعرت شيللي بإثارة بالغة، لكنها حاولت أن تستدرك الأمور وتحلّلها. لعل دعوة بروك لها هي محاولة منه ليتجنّب التوتر الذي يتملكه لعودته إلى موطنه. كما أنها تقرن بروك تايسون دوماً بالإثارة و.. أيضاً ... بالخطر.

لقد تحمّل بروك الكثير من الجروح النفسية، رغم شفاء جروحه الجسدية. اعتداء جده المستبد عليه لم يتوقف إلاّ عندما ردّ بروك له اللكمة باللكمة وكان حينذاك في الخامسة عشرة من عمره. وكان أحد الأجراء قد رأى ذلك فأخبر زميلاً له فانتشر الخبر في المدينة كلها.

بعد ذلك، أصبح بروك رمزاً للشجاعة، لكنه كشف عن جانب مظلم لديه وهذا ما ستتذكره شيللي.

* * *

آخر ما خطر لبروك لهذا المساء هو أن يكون اجتماعياً. في الواقع، منذ دفن أمه ومشاعره سلبية للغاية وكأن موتها المبكر كان نتيجة خطأ منه. لقد سبّب لأمه الكثير من الحزن لنزاعه المستمر مع جده، لكن هذا لا يعني أنها لامته على ذلك. لكن الجرح لم يشفَ والحزن لم ينتهِ. لقد كره جده الذي نبذهما، كرهه ولا يريد أن يطلب له الرحمة. حتى أنه اتهم جده مرة بالتخلص من أبيه الذي اختفى من دون أثر.

فحسب معرفته بجده، لم يستبعد أن يطلق النار على أيّ رجل يتحدى

إرادته، فهو من أولائك المصابين بجنون العظمة. هذا ما يفعله المال والنفوذ بالرجل الدنيء. لقد ثار جده غضباً عندما هربت ابنته الوحيدة وتزوجت وحاول أن يفسخ عقد الزواج لكنه فشل، إذ كانت أمه حاملاً. الله وحده يعلم لما أطاع والداه كينغزلي وعادا إلى «مولغاري»، حيث ولد بروك في غرفة في الطابق العلوي من المنزل.

بذل قصارى جهده واحتمل العداوة والمعاملة الخشنة من أجل أمه التي كانت من العجز بحيث لم تعرف ما عليها أن تفعل. لكن بعد ست سنوات اختفى روري تايسون تاركاً رسالة أحرقها كينغزلي بعد أن عرضها على الشرطة في «كوميرا كروسينغ». وطوال تلك السنوات لم يسمع أيّ خبر عن أبيه. وقد حاول بروك أن يحقق في الأمر لكنه لم ينجح. سوف يسوّي هذه المسألة مع جده فالأمر مهم جداً بالنسبة إليه.

أخذ بروك يشتم بصوت خافت، محاولاً أن يطرد هذه الأفكار الكئيبة، وعاد يكمل ارتداء ملابسه. كان شعره الأسود جفّ نسبياً بعد الاستحمام، فبدا أكثر تجعداً وطولاً مما ينبغي.

لبس قميصاً نظيفاً كان قد أحضره معه لحسن الحظ. ما الذي يفعله بحق الله؟ إنه يريد أن ينفرد بنفسه لكي يداوي جراحه، فلماذا اختار هذه السهرة في المدينة؟ في الواقع، لطالما وجد في ابنة لوغان الصغيرة شيئاً محبباً، وقد تحوّلت الآن إلى امرأة كاملة. كان توأمها سين نسخة عنها، وغرقه مأساة رهيبة تركت الوالدين شبه مجنونين. يقال إن الأم ما زالت في الفراش تبكي طوال النهار. أمّا الأب فلم يسمح لأحد بأن ينسى المأساة، لا سيّما ابنته الصغيرة.

كانا توأمين صغيرين رائعي الجمال . . . الكل كان يعتبر رعاية شيللي لأخيها تصرّفاً رائعاً. وطريقة معاملتهم لها منذ موته لم تكن صواباً فقد عاقبتها أسرتها بقسوة أشبه بما تحمّله بروك من جده، ما خلق بينهما رباطاً. لم ينس أنه عانقها أثناء الرقص، ولم تكن قد تتجاوز السادسة عشرة حينذاك. لديه شعور بأن شيللي، بابتسامتها الجميلة وهدوئها

واتزانها الظاهريين، تخفي عواطف مشبوبة للغاية، فهي حمراء الشعر، وهذا يدل على طبيعتها النارية.

ولكن ماذا عن شخصية أماندا؟ إنها تجلس إلى البيانو تعزف وتغني، بينما شيللي تكدح، تجهز الطعام لحفلات تقيمها للسوّاح القلائل من الناس. الذين تحدث إليهم في المدينة أكّدوا له أن أسرة لوغان في أسوأ حال . . . الكل معجب بهذه الفتاة فهي كفوءة، جلود، بالغة الشجاعة، وذكية للغاية.

وما يعرفه بروك هو أن مخلوقة صغيرة حلوة مثل شيللي لوغان تبعث السكينة في نفس الرجل. وهو ظمآن إلى بعض السكينة، لكن الحب ليس ضمن حساباته ولا حتى علاقة مختصرة قصيرة، لا سيّما مع الفتاة التي كان يراها تكبر أمامه. لا يمكنه أن يضع أيّ مخططات، لا سيّما وأنّ مستقبله لم يتقرر بعد.

كان يعلم أنه لن يجد السكينة في «مولغاري»، لكن مواجهة جده ضرورية للغاية. كما أنّ «مولغاري» مسقط رأسه ورأس أمه وخاله آرون، والد فيليب. أما فيليب فولد في مستشفى خاص في «بريزبين»، لأن فرانسيس خافت أن تلد في مركز منعزل في البراري. كان خاله آرون، الذي يتذكره رقيقاً لطيفاً، قد قُتل وهو يحاول ترويض ثور متوحش، فيما فيليب لا يزال صبياً صغيراً.

ومنذ ذاك الحين، عاش الكل في جحيم.

* * *

- حسناً، كم تبدين جميلة!

وكان بروك يقف عند العتبة يحدّق إلى شيللي، وذوقها الأنيق. كانت قد ضفرت شعرها الأحمر الجميل فبدا متألقاً كحبال من لهب، مزيّناً بشرة ناعمة لا عيب فيها كبشرة الطفل. وقد اختارت لوناً لامعاً ليزين فمها، فيما احتلّت عيناها الخضراوان وجهها باتساعهما وغموضهما. بدت وكأن بإمكانها أن ترمي سحراً متى شاءت، حتى عليه هو. حذار. . .

هذه الفكرة جعلته يقهقه عالياً ويقول بلهجة إيرلندية مبالغ فيها: «حلوة كجنية صغيرة! هذه البلوزة بالغة الجمال».

هل نسي أن عليه أن يستعيد حقوقه في الإرث؟ ألم يقرر، مسبقاً، أن ليس بإمكانه التورط مع شيللي لوغان؟ ومع ذلك، ها هو في غضون نصف ساعة، يسمح لنفسه بأن يرغب فيها.

نظرات بروك جعلتها ترتجف. وكان قد وضع يده على مقبض الباب وأخذ يحدّق إليها.

- أنا مسرورة لأنها أعجبتك. لم يكن لدي ما ألبسه، فاندفعت إلى متجر الألبسة النسائية ووجدت هذه في اللحظة المناسبة.

فقال ضاحكاً: «يا لحظي السعيد. هل نذهب؟ لقد قمت بالحجز. أخبروني أن على الناس المهمين أن يحجزوا لدى هاريت مسبقاً».

- هل تحدثت إلى هاريت بالذات؟

كان عليها أن تتخلص من هذا الاضطراب، هذا السحر، وإلاّ . . .

أخذ مفتاح الباب من يدها: «نعم فبهذه الطريقة استطعنا الدخول إلى مطعمها. أخبرتني أنها ستتولى العناية بنا، فهاريت من المعجبات بك».

نظرت إلى كتفيه العريضتين وهو يقفل الباب، ثم تخيّلت فجأة شعورها لو أخذها بين ذراعيه. لكن شيئاً ما في بروك تايسون جعل قلبها يتحطم. يا له من عذاب عاشه بروك وأمه حين بقيا في «مولغاري» بعد أن هجرها الأب. كان بيتاً حزيناً كبيتها.

قالت له: «لم أقصد مطعم هاريت منذ افتتاحه. تلقيت دعوة لحفل الافتتاح لكن أماندا أرادت أن تحضره، فلم أشأ أن أترك أمي وحدها إذ كانت تعاني من داء الشقيقة».

أمسك بذراعها وهما يجتازان الممر، فشعر بها نحيفة رقيقة.

- إننا نقدّم قرباناً للتعاسة.

- أمي تخشى أن تشعر بالسعادة ظناً منها أن في ذلك عدم وفاء لسين.

فقال عابساً: «هذا تبرير فظيع وهو يجلب الكآبة، لكنني لا أستطيع

أن أقول إنني لا أتفهّم».

واجها بحراً من الابتسامات وهما يتوجهان نحو المطعم. بدا الكل مبتهجاً لرؤية بروك يعود إلى موطنه، وكان بروك يقابل هذا بهدوء. شعرت شيللي بوجهها يحمّر خجلاً، فما الذي تفعله بتأبطها ذراع بروك؟ مجرد وجودها معه حدث عظيم.

سارا بصمت مشحون بالغموض حتى وصلا إلى مطعم هاريت، حيث الأنوار المتلألئة. كان الجو في الداخل جميلاً منعشاً. منذ افتتاح المطعم أصبح مكاناً بالغ الشعبية حيث يجتمع المواطنون مع أناس من المراكز البعيدة.

- مرحباً، مرحباً!

رحبت بهما هاريت التي بدت رائعة في قفطان حريري أصفر، وانحنت تقبّل وجنة تلميذتها السابقة وهي تقول لبروك: «أين كنت طوال هذا الوقت، يا بروك؟ لقد افتقدناك حقاً».

- في إيرلندا.

ونظر في عيني هاريت الرقيقتين الذكيتين للغاية وذكر اسم المزرعة، فأومأت وقالت: «لا بد أنك انسجمت مع المحيط هناك. تبدو رائعاً. لكني علمت أنك فقدت أمك العزيزة!».

بقي لحظة لا يستطيع الجواب، وقد تصارع في داخله الحزن والوحشة: «إنها حيث أرادت أن تكون، يا هاريت، في موطن أجدادها. لم يكن لديها موطن هنا».

وبان على فمه الألم والمرارة.

- قلبي يتألم من أجلك يا بروك. إنها محنة قاسية لك.

وضغطت بيت على ذراعه وهي تنظر إلى عينيه اللامعتين بعطف عميق: «سنتحدث عن هذا لاحقاً، أمّا الآن فأنت بحاجة إلى بعض السلام والتعزية. لدي مائدة جيدة لكما في الفناء. هيا بنا، تبدين جميلة يا شيللي».

وابتسمت لها مشجعة، فشيللي شابة شجاعة وبالغة الذكاء برأيها. كان بإمكانها أن ترحل إلى أي مدينة، لكنها بقيت مع أسرتها التي لا تقدرها حق قدرها، والتي تجعلها تشعر بالذنب من دون وجه حق.

- ما أحسن أن نراك، يا بروك.

راح بروك يحيي معارفه، أثناء توجههم إلى مائدة في الفناء.

كان المطعم يفتح أبوابه ثلاثة أيام في الأسبوع، فهارييت تجاوزت الستين من عمرها ولا ترغب في أن ترهق نفسها على الإطلاق.

- ستجربان طبقاً جديداً.

ووضعت أمامهما قائمة الطعام وهي تتابع: «هذا المطعم مختص بالطعام الشرقي. لكن إذا شئتما شيئاً آخر، فسنعدّه لكما بسرعة».

قال بروك باحترام: «أنت مدهشة، يا آنسة كرومبتون».

فأجابته باسمة: «قل لي هذا عندما تنهي طعامك. والآن، عليّ أن أعود إلى المطبخ، ولكن إحدى بناتي ستأتي لتسجل ما تطلبانه. هل تريد شراباً بانتظار الطعام؟».

سألها بروك وهو ينظر إلى جمالها لا يريد أن يرى شيئاً آخر: «شيللي؟».

فأجابته: «سأكتفي بالماء، من فضلك».

- ولمَ لا نطلب كوكتيلاً من العصير كان يوماً مرهقاً، ونحن بحاجة إلى بعض الشراب.

فأجابت شيلي: «حسناً، موافقة».

فابتسمت هارييت: «سأرسل إليكما طلبكما».

٢ - جنيّة ماء

أثناء تناول الطعام، ترك بروك عالم «مولغاري» المحطم للروح وذكرياته الكئيبة خلف ظهره. كانت شيللي جميلة بما يكفي أي رجل . . . أظهرت اهتماماً بالغاً بما يقوله، وراحت تلقي أسئلة ذكية فوجد جسده يسترخي بعد أشهر من التوتر. كان العشاء لذيذاً تماماً.

اختارا الطعام التايلندي الذي يختص به، فبدآ بالأربيان المطبوخ بالبهارات والمقدّم مع صلصة رائعة النكهة. تبعه طبق الدجاج مع صلصة الفول السوداني والخيار المقطّع والجزر والبصل الأخضر، لينتهيا مع الجيلو بقليل مع الفاكهة. كانت الأطباق لذيذة ومبتكرة إلى أقصى حد.

قال بروك راضياً: «كان الطعام رائعاً».

فقالت: «لم أذق في حياتي مثل هذا الطعام الرائع. لقد حاولت أن أتعلم أطباقاً يابانية من أجل ضيوفي».

وهل نجحت؟

كان يشعر بلذة هو يراقب ملامحها المعبّرة. وعلى ضوء الشموع، ظهرت في خضرة عينيها الزمردية نقاط ذهبية ما خلب لبه! أجابت: «هذا يتطلب وقتاً، لقد تعلمت تحضير السوشي. لكن الأرز يدوم يوماً واحداً فقط، فنقدمه مرة واحدة. أكبر مشكلة هي الحصول على سمك طازج لأن السمك المثلج لا ينفع. غالباً ما اكتفي بتقديم السمك المعلّب من سلمون وسرطان البحر. لكن اللحوم هي أساس العديد من الأطباق الأخرى. أنا ماهرة في طهي العجة اليابانية السميكة منها والرقيقة، ولست سيئة في تقديم الهدايا الرمزية».

ابتسم لحماستها وعلّق: «عليّ أن أزورك ذات يوم، أتذكر أنك كنت ذواقة للفنون. ألم تحتفظ الآنسة كرومبتون بكل رسومك؟».

تملك شيللي السرور: «بلى. غريب أن تتذكر هذا، ما زلت أحتفظ برسومي وألواني المائية وأستعملها كلما أصبح لدي وقت فراغ. أنا فنانة محبطة، وستدهش حين تعرف كم هي بعيدة المناطق التي كنت أقصدها لأرسم الأزهار البرية التي لا نجد مثلها هنا».

- يبدو أنك تحبين حقاً ما تفعلينه.

بدت من السعادة بحيث رغب في أن يمسك بيدها. إنها تبدو هشة للغاية لكنها تضج بالحياة.

- طبعاً، لكنني لست واثقة من أن رسومي بنفس الجودة التي تصفها بها الآنسة كرومبتون. لقد علمتني الفن وتقديره، وشجعتني في كل خطوة، وحاولت أن تجعلني أقيم معرضاً، حتى أنها عرضت عليّ أن أقيمه هنا.

ونظرت شيللي في أنحاء الفناء وإلى قاعة المطعم المكتظة: «تصور رسومي وهي تزيّن جدرانها، أشبه بمعرض للفنون».

- إنها فكرة ممتازة حقاً، أنا واثق جداً من أن هاريت حكم ممتاز.

ابتسمت شيللي: «هذا ما يعطيني الثقة بالنفس. لقد كان فضل هاريت علي كبيراً، كما أني أحب الرسم على الحرير فأرسم أزهار غابة المطر، والفراشات بأجنحتها الملوّنة. الفراشات شاعرية للغاية. ولكن، حذار أن تشجعني على الثرثرة».

- أنا مستمتع بحديثك. صدقيني، تابعي.

كان توتره قد تلاشى تقريباً، حتى أنه فكر في أن يأخذها في رحلة لترسم.

قالت: «أسكتني متى شئت، أنا لا أهرب لكي أرسم. ثمة عالم مليء بالطيور الإستوائية وفواكه غابة المطر».

فقال ساخراً: «وكيف تجدين الوقت للقيام بكل هذا؟».

- الله أعلم، إنني أركض طوال الوقت.

- أنا حتماً لا أفهمك.

- لا تنخدع فأنا قوية، كما أني آكل جيداً كما ترى. لديّ الكثير من العمل لكنني أستمتع كثيراً بإقامة حفلات للسائحين. أمضت سيدة يابانية كثيراً من الوقت معي تعلمني كيف أستعمل السكين اليابانية لتنفيذ الزخارف الجميلة التي تزين أطباق الطعام. إنها فنانة ويمكنها أن تفعل أي شيء من قطعة بسيطة من الخضار والأزهار والنباتات، أعطها فقط برتقالة أو حبة خيار أو فجل أو فطر . . . مجرد مراقبتها متعة.

- أظنها أمضت سنوات لتتعلم هذا الفن.

فأومأت: «تعلم الطهي الياباني طريقة جيدة للتعرف إلى هذه الحضارة».

- أنت منفتحة إذاً على كافة التأثيرات الخارجية. أنت حقاً مضيفة ذوّاقة للغاية.

- أحاول أن أكون كذلك، ونحن بحاجة ماسة إلى زبائن. حاولت أن أقنع راعي المواشي لدينا، وهو من سكان أستراليا الأصليين، بأن يأخذ السياح في نزهات على الأقدام إلى كهوف وايبورن. إنهم حذرون ويقدّرون جداً البيئة، لكن أبي يحرص على أن يبقيه مشغولاً، ما سيكلفني الكثير.

- يبدو أنك تحبين التحدي، يا شيللي!.

ردّت: «خصوصاً إذا كان التحدي مربحاً. أظن أنّ الوقت ما زال باكراً لكي تضع خطة ما . . . إلاّ إذا كنت تنوي العودة إلى إيرلندا؟».

وأعدت نفسها لخيبة أمل بالغة إذا جاء رده بالإيجاب.

كان في عينيه مرارة بالغة وهو يجيب: «خطتي هي أن أستلم سلسلة مزارع كينغزلي».

فتنفست الصعداء، وقالت: «عفواً يا بروك، ولكن هل ذلك ممكن؟ ماذا عن فيليب؟».

فرد بسخرية بالغة: «أنا لا أتخذ شركاء».

شيء ما فيه أخافها: «سأصلّي إذن من أجلك».

- افعلي فقد أحتاج لذلك. أرجوك لا تنظري إليّ والخوف في عينيك يا شيللي لوغان.

وأضاءت وجهه ابتسامة بدت لها كشعاع شمس يشق طريقه بين الغيوم.. قالت: «أنا خائفة عليك، كيف يمكن لجدّك أن يتغيّر؟».

شدّ على كأسه بقوة جعلتها تخاف أن تنكسر وقال: «لعله اكتشف أن لديه ضميراً».

- هل تعتقد أنه سيذكرك في وصيته؟

وانتبهت إلى تغيّر مزاجه حين أومأ وردّ: «لطالما كانت دوافع جدي تزعجني، يا شيللي. في الظاهر، أخبرني أنه يريد صلحاً بيننا، لكنه لطالما كان أكثر الرجال مراوغة. لعلها مزحة قاسية أخرى. أو لعله أصبح مجنوناً بعض الشيء، هذه الأيام. الألم يمزق جسمه. إنه الشعور بالذنب، حتى أنه يتحدث عن الذهاب إلى إيرلندا ليزور قبر أمي لكنه لن يصل إلى هناك أبداً».

- هل حالته سيئة إلى هذا الحد؟

- حتى لو نجا من تأثير الرحلة، فهو يعلم الاستقبال الذي سيلقاه من أهل أمي ومن أصدقائنا. لقد عانت أمي بسببه. ورغم أنها وجدت السلام في النهاية، إلاّ أنني واثق من أن سنين العذاب تركت أثرها فيها.

- لا بد أنه أحبها ذات يوم؟

- جدي لا يعرف الحب، يا شيللي.

- أنا شديدة الأسف، يا بروك. ربما ما كان لك أن تعود وأنت على هذا القدر من الاضطراب.

فقال وقد مسّت منه وتراً حساساً: «لم يكن أمامي أي بديل. هل يمكنك أن تري ذلك؟ أن تري الإضطراب؟».

فقالت صادقة: «يحزنني أن أقول نعم. كنت أراقبك طوال السهرة».

كان الاضطراب يبدو عليه كلما أتى على ذكر جدّه، فتتوتر ملامحه وتنقبض يداه. قال بصوت مهذب: «لا شك أنك على صواب! لا أستطيع محو المرارة من نفسي لكن «مولغاري» جزء مني. لقد جاء دوري للالتصاق بهذه الأرض ولن أدع فيليب وفرانسيس يأخذان مكاني».

- أتراني أخطىء كلما فتحت فمي؟ أنا أتفهّم مشاعرك يا بروك، ولكن لا بد أنك فكرت في أن لفيليب حقاً قانونياً. إنه حفيد ريكس كينغزلي هو أيضاً. ألا تحتمل المشاركة في «مولغاري» فعلاً؟

مدّ يده فجأة وأمسك بيدها ما أحدث رعشة في ذراعها: «فيليب، يا عزيزتي شيللي، لا يملك الكفاءة لإدارة «مولغاري» وحدها فكيف بالسلسلة كلها. لقد عدت منذ يومين فقط وتبيّن لي أن فيليب لا يستطيع إدارة الأمور، فهو لا يعرف كيف يستعمل نفوذه أو وضعه أو المال، كما أنه لا يعامل الرجال بشكل جيد. لا يمكنك أن تطلبي الاحترام بل عليك أن تكسبيه بنفسك. لن يمضي وقت طويل حتى يخسر كل ما بناه كينغزلي، وأذكّرك بأنه استعمل جزء من ثروة «رولوري».

وتوتر فكه حتى كاد يتصدّع.

- بروك، أنت تؤلمني.

- آسف.

وترك يدها على الفور فيما عيناه لا تزالان تلمعان.

- ما مدى سوء حال جدك؟

إنها لا تزال تتذكر ذلك الرجل الضخم، الوسيم، العابس، المتغطرس.

فنظر بعيداً: «قلبه متعب، والسرطان يتفشّى في معدته والتوتر ينهك أعصابه. قد يموت في أي لحظة، عليه اللعنة».

ارتجفت بشكل لا إرادي: «هذه قسوة بالغة لا تُغتفر».

فنظر إليها: «إذا كان هذا صحيحاً، فهو نتيجة سوء معاملته لي ولأمي. آسف، يا شيللي، من المستحيل أن تصلحني صغيرة حلوة

مثلك».

– أنا لست حلوة إلى هذا الحد كما أني مثلك قادرة على دفن الكدر في أعماقي. لا تدع حزنك ومرارتك يقضيان عليك، إذ سينتصر جدك عليك، وستكون نهايتك كنهايته.

قال متوتراً: «يا لها من فكرة، ومع هذا تقولينها في وجهي».

– نحن لا نرغب دوماً في سماع الحقيقة. آسفة إذا كدّرتك يا بروك، فلم يكن هذا قصدي.

التوى فمه الجميل: «لم يكن كذلك؟ ظننتك تعرفين مثلي طعم المرارة. ألم تدينك أسرتك؟».

حان الآن دورها لتتألم: «لديك نزعة إلى القسوة».

– حذار إذن.

تابعت كلامها، باذلة جهدها لكي تتجاهل التوتر الذي أخذ يغلي بينهما: «وعليك ألاّ تتطفل على عالمي الخاص».

أجاب بصوت ساخر: «شيللي الكل في هذه المدينة يعرف تاريخنا».

فقالت بشيء من مرارته: «وكيف لا يعرفون؟ أحياناً أعتقد أنني لن أتحرّر أبداً. خسارتي لتوأمي بتلك الطريقة المأساوية لوّنت حياتي بلون الرماد».

فقال مؤكداً: «عليك أن تغيّريها إذن. من شعره كاللهب لا يمضي حياة بليدة فاترة. لا يمكنك أن تسمحي لأسرتك بأن تحبسك في قفص. لديك الحق في أن تعيشي لكنني أرجو ألاّ يكون هذا مع إبن خالي. فهذا فظيعٌ للغاية».

ورفع بصره إلى أعلى ثم عبس: «يقول المثل: أذكر الذئب وهيّىء القضيب. قد لا تصدقين، لكن فيليب يتجه إلى مائدتنا».

فالتفتت بحركة آلية: «لا . . . يا إلهي!».

فتمتم: «بالضبط».

وتقدم فيليب كينغزلي إلى مائدتهما. كان شاباً طويلاً رصيناً منحني

الكتفين قليلاً وكأنه يحمل عبئاً ثقيلاً.

ملامحه كملامح آل كينغزلي التي يمكن أن تكون أخّاذة مدهشة لولا نقص الدفء والمشاعر فيها. كان فيليب مجرد شاب حسن المظهر، وقد بدا ناعماً جداً بجانب ابن عمته بروك، بسمرته ووسامته الفياضة.

نظر إليها وفي عينيه نظرة من اكتشف خيانة: «مساء الخير، يا شيللي. أنت آخر شخص توقعت رؤيته هنا مع بروك».

كان في لهجته اتهام ضايق شيللي جداً. ومن دون أن يدعوه أي منهما للجلوس، جرّ كرسياً إلى المائدة وجلس عليها وهو يسألها بذعر: «ما الذي جعلك تتناولين العشاء مع بروك؟».

فقالت بشيء من الحدة: «من فضلك يا فيليب. هذا ليس من شأنك».

فرد بالحدة نفسها وهو يزداد دنواً منها: «أظن أنك جعلتني أفهم أن هذا من شأني؟».

فقالت بهدوء ولكن من خلال أسنانها المطبقة: «لم أفعل هذا أبداً».

فقال بإصرار: «آسف، لكنني أظنني فعلت».

كانت تعلم أن الإصرار عادته، لكن وقبل أن تتكلم رفع بروك يده يسكته: «كفى يا فيليب. لقد سمعت ما قالته. ما الذي يجعلها ترغب في شخص مغرور تافه مثلك؟ ثم ما الذي تفعله هنا؟ لا أتذكر أنني دعوتك للجلوس إلى مائدتنا؟».

كان في صوت بروك تهجم وتحذير أظلم له وجهه، فقالت شيللي بسرعة: «هل من خطب في بيتكم، يا فيليب؟ هل هذا ما جاء بك؟».

بدا واضحاً أن الحب مفقود بين القريبين.

نظر فيليب إليها مباشرة وقد بانت مشاعره في عينيه: «انحرفت صحة جدي هو يسأل عن بروك. كنت سأشرح الأمر لو أعطيتني فرصة».

رفّت عينا شيللي وقالت: «كان عليك أن تتكلم على الفور بدلاً من أن توبخني. هذا سبب حضورك إذن؟».

هزّ بروك كتفيه: «إذا كان هذا صحيحاً، فلعلها طريقة كينغزلي في إعادتي إلى البيت. ربما لنطبق على بعضنا البعض».

هزّ فيليب رأسه: «ألا يمكنك أن تكون عطوفاً، ولو قليلاً، على جدنا؟».

- لا. لقد استنزف كل ما كان لديّ من عطف وذلك منذ وقت طويل.

قال بثقة وجدتها شيللي غريبة وغير صادقة: «أعجب الأمور هو رغبته في عودتك».

ففي كل مرة كانت ترى فيليب، كان يظهر استياءه البالغ من جده ... ويتلهف دوماً إلى الفوز بعطفها ...

ابتسم بروك ساخراً وقال: «فيليب ... أيها المنافق!».

فرفع فيليب يده متظاهراً بالصلاح: «إننا نتحدث عن جدنا. لقد كان عملاقاً فأصبح الآن طريح الفراش يحدّق إلى السقف. أكره أن أراه يذوي بهذا الشكل. كان قوياً للغاية ومنيعاً لا يُقهر، فما أفظع أن أراه بهذا الضعف. هذا يقتلني».

كان صوته منخفضاً أجشّ، فلوى بروك فمه: «يا إلهي، من الغريب أن دموعك لم تنهمر».

- أنت نغل قاسي القلب.

- وأنت كاذب تشعرني بالغثيان.

- ليس لديك حس الأسرة. لا عجب أن جدي طردكما أنت وعمتي وكاترين.

شحب وجه بروك، ومضت لحظة تساءلت فيها شيللي عمّا إذا كان سيمسك بخناق فيليب، فمدّت يدها تمسك بيده وتشدّ عليها بعنف: «لا تهتم لكلامه يا بروك. لماذا لا تذهب يا فيليب؟ لقد أوصلت رسالتك».

تصلّب جسم فيليب: «لا أصدّق أنك تنحازين إلى صف بروك ضدّي. أنت صديقتي أنا وليس هو».

قال بروك ببطء وقد خفّ غضبه بشكل ما: «أنت تتكلم وكأن شيللي ملك لك».

من كان يظن أن يداً أنثوية صغيرة يمكن أن تكبح غضبه العنيف ذاك. عليه أن ينظر إلى شيللي لوغان بشكل جاد ...

وأعلن فيليب: «لدينا خطة للمستقبل. أنا مختلف عنك يا بروك. أريد أن أحقق شيئاً في حياتي».

بدت في عيني بروك نظرة ازدراء: «هذه مهمة صعبة عليك لأنك جبان. أنت تكره ذلك الرجل بقدر ما أكرهه، فقد جعل حياتك جحيماً، لكنك تحاول الآن أن تظهر نفسك كالحفيد الحزين الشريف. كلنا نعرف ما الذي تسعى أنت وأمك وراءه. أملاك كينغزلي. وهذا هو سبب حملتكما عليّ، الله يعلم كيف بإمكانكما أن تتخلصا من العار والشعور بالذنب».

قال فيليب بحدة لكن من دون أن يستطيع مواجهة نظرات ابن عمته: «ليس لديّ فكرة عما تقوله».

- التآمر، يا فيليب. القصص التي نقلتها إلى كينغزلي. لا بد أنكما أقمتما حفلة عند رحيلنا.

- أتعني عندما طُردنا؟ لقد أعطاكما جدي فرصاً عدة. ما من أحد تآمر ضدكما. لقد تعمدت أن تغضبه وتكدره، وكلما أسرعت في إدراك ذلك كلما كان أفضل. لم تعرف كيف تتصرف كفرد من أسرة كينغزلي. كنت عنيفاً منذ طفولتك.

- إذن، لم يكن عليكما، أنت وأمك، أن تخافا شيئاً. إن لديها من الذكاء ما جعلها تستنتج أنك غير مناسب وأني أشكّل عائقاً أمامك. يبدو أنك الشخص الذي يعيش حياة محطّمة وأنت تستحق ذلك تماماً، ألا تظن ذلك؟

فقال فيليب بعناد وملامح جامدة: «الجد يريد أن يراك».

فقال بروك بشيء من التسلية: «لا أظنك جئت لتأخذني؟».

- لدي الهليكوبتر.

ونظر فيليب إلى شيللي ثم أشاح بنظره بسرعة وكأن الأمر يؤلمه.

قال بروك: «لا أريد الذهاب معك. سأعود إلى «مولغاري» عندما أكون مستعداً، أيّ غداً».

وقف فيليب واتكأ على المائدة: «وماذا لو كان الأوان قد فات غداً؟».

فقال بروك بالفرنسية: «إنها الحياة».

وتابع يقول بإعجاب حاقد: «لكنني لا أتصوّر أن يحدث هذا لأن كينغزلي سيختار بنفسه اللحظة التي يموت فيها».

فقال فيليب متذمراً: «هل تدرك كم كلفني أن أقتفي أثرك إلى هنا؟».

وألقى نظرة يائسة نحو شيللي وكأنها مذنبة، فقال له بروك: «لماذا هذا اليأس؟ ألا يعجبك أن تبلغه أنني قلت إنني سأعود عندما أكون مستعداً لذلك؟».

- لا تظن أنني لن أفعل ذلك. إن لك طريقة غريبة في التصالح معه.

فقال بروك بفروغ صبر: «وأنت ما زلت تقوم بعمل أمك القذر».

حتى فيليب العديم الإحساس لم يستطع البقاء أكثر، فنهض واقفاً وهو يهزّ رأسه بذعر، ثم التفت إلى شيللي متوسلاً: «يبدو أنك أنهيت طعامك. هل يمكن أن أرافقك إلى الفندق، يا شيللي، أريد أن أتحدث إليك على انفراد».

مال بروك إلى الخلف في كرسيه وقال مخاطباً شيللي بعينين لامعتين: «هل هو جاد؟ وداعاً يا فيليب».

انحنى فيليب وقال بهدوء: «واذهب أنت إلى الجحيم».

- أنا لست ذاهباً إلى جهنم، يا فيليب. إنني أنظم شؤوني فلماذا لا تفعل أنت ذلك؟

قال فيليب بمرارة لا تتناسب مع رجل اعترف لتوّه بحبه الكبير واهتمامه بجده: «إنني ضحية مثلك تماماً».

- أعلم هذا، يا فيليب.

- لا تظنني سأدعك تنتصر. لم أحتمل العبودية طوال تلك السنوات من أجل لا شيء. لن أقبل بهذا.

- ولا أنا.

بقي فيليب واقفاً يحاول السيطرة على نفسه فشعرت شيللي بعطف مفاجيء: «اذهب يا فيليب فالناس ينظرون إلينا».

قال فيليب بمرارة وقد تصلّب جسمه: «دعيهم ينظرون، ظننت أني واثقٌ منك يا شيللي، لكنني الآن أقل ثقة».

- هذا كثير، أرجوك أن تذهب.

فقال بصوت يدلّ على أنها سقطت من اعتباره: «سأفعل. لا تدعي ابن عمتي يخدعك، سمعة بروك مع الفتيات معروفة».

- أنا دوماً أتأكد من ألاّ أؤذي أحداً.

وكانت الكلمة الأخيرة لبروك رداً على فيليب قبل رحيله.

* * *

كانت هاريت تجلس عند الصندوق تستلم الحساب من الزبائن عند خروجهم. وعندما جاء دور بروك أخرج من جيبه قبضة من الدولارات قائلاً لها: «كانت وجبة رائعة، آنسة كرومبتون. لقد استمتعنا بها كثيراً».

بادلته هاريت الابتسامة وهي تتفحصه ثم قالت: «هل كل شيء على ما يرام؟ آسفة، ولكن كان عليّ أن أخبر فيليب بمكانك».

هزّ كتفيه: «لا تهتمي بهذا».

قالت بهدوء و هي تنظر إلى شيللي: «قال لي إن حال جدك تسوء».

- أظنني سأعلم ذلك عندما أعود.

- أرجو أن تسير الأمور على ما يرام، يا دانييل.

فضحك: «هذا يعيدني إلى الماضي، لأنك الوحيدة في «كوميرا كروسينغ» التي تدعوني دانييل».

- إنه يناسبك لأن الإسم مشتق من اسم عرين الأسد. عليّ أن

أحذرك من أن ما من شيء تغيّر.

- أتعنين بالنسبة إلى الرجل العجوز؟

- وبقية الأسرة.

- أخبريني ما لا أعرفه، يا آنسة كرومبتون.

قالت وهي تفكر في هذا الشاب البالغ الوسامة وصعوبة طفولته ومراهقته اللتين كانتا أسوأ بكثير مما عاناه ابن خاله فيليب الذي لم يفعل ما يغضب جده: «لا أظن أن ثمة الكثير. وكيف حال الأمور في «وايبورن» يا شيللي؟ سمعت أنك كثيرة الأشغال؟».

- علينا أن نقيم حفلة بعد شهر لسيّاح يابانيين.

- يا لك من شابة ذات عقل مدبّر! لم أتصور قط أنك ستقومين بعمل كهذا. إذا حدث واحتجت إلى عون فأخبريني، وأنا أعني هذا يا شيللي.

- أعرف يا آنسة كرومبتون، شكراً. إنك صديقة جيدة.

فقالت هاريت تذكرها بحديثهما السابق: «لا تنسي حديثنا عن معرض الصور».

- عندما يتيسّر لي وقت.

- سيكون هذا بهيجاً. تعالي مرة أخرى.

أثناء عودتهما إلى الفندق، توقفا في الحديقة العامة. كانت النجوم تتألق في السماء، والقمر الفضي الكبير يغمر الواحة الصغيرة بضوئه الحالم فيما ضباب أبيض معلق فوق جدول المياه الفسيح المرصّع بانعكاس النجوم.

كان الهواء البارد نسبياً يهبّ من الصحراء فيداعب الأشجار التي راحت أوراقها الذابلة تتساقط متراقصة على الأعشاب. لم يكونا بعيدين عن الشارع المضاء بمصابيح قديمة الطراز ومع ذلك شعرت شيللي بأن ما من شيء حي سواهما هي وبروك... حتى جلبة المدينة خفّت الليلة.

بقي بروك صامتاً مستغرقاً في أفكاره، فرفعت شيللي بصرها نحو السماء بنجومها الساطعة، لم تجد صعوبة أبداً في تمييز نجومها المفضّلة

لطريق التبانة المرصعة بالنجوم المتألقة والصليب الجنوبي. وبقية النجوم التي تحمل أسماء آلهة الإغريق في الأساطير القديمة.

سألته برقة بالغة، وهي لا تزال مأخوذة بجمال هذه العزلة الرائعة: «كيف تبدو السماء في إيرلندا؟».

بقي بروك لحظة لا يجيب، فرغم عشقه للوقت الذي أمضاه في إيرلندا إلاّ أن قلبه بقي متلهفاً للعودة إلى موطنه الصحراوي، ثم أجاب: «إنها ليست كسمائنا، ليس لديهم هذا الصفاء الرائع. لا شيء يشبه سماء صحرائنا. إنها زرقاء صافية للغاية نهاراً ورائعة للغاية ليلاً. يمكن للإنسان أن يمدّ يده ويجمع اللآلىء. إن إيرلندا عالم آخر يا شيللي وجمالها من نوع آخر. المناظر الطبيعية عندنا، والبراري الشاسعة وحشية بالنسبة إلى برازيهم. براريا فسيحة، بينما براريهم صغيرة. عرفت تلك البلاد وسكانها الكثير من الحب والحزن. لقد أخذنا أقرباء أمي تحت أجنحتهم وساندونا بحرارة وبشاشة بالغتين. أمّا بالنسبة إلى الجوّ فيظن سكان البراري أمثالنا أننا نعيش على كوكب آخر. في هذا المكان يعتبر انهمار المطر نعمة إلهية، فيما هناك تمطر السماء يومياً. ما من سيول كما هو الحال هنا، بل مطر دائم ناعم كالضباب. هناك تشعرين أنك في وطنك، يا شيللي، مثل «لينان سايد».

- هل هي جنيّة ماء؟

- لا، بل مخلوقة جميلة للغاية ذات شعر طويل أحمر وعينين خضراوين.

- ما دامت ليست جنية ماء...

شعرت بطعنة ألم أصبحت مألوفة لديها وأضافت: «بهجتهن هي إغراق الأطفال».

وبالغريزة، وجد بروك نفسه يطوق كتفيها: «يا لي من أحمق إذ فتحت هذا الموضوع».

- لا بأس، لطالما كانت جدتنا موريا تملأ رؤوسنا بحكايات الجن.

بعض حكاياتها كانت عن جنيات صغيرات يصعدنَ إلى سطح البحيرة، وحالما تمدّ يدك إليهنّ يختفين. لطالما ظننت أن سين رأى واحدة من تلك المخلوقات الصغيرة الرائعة الجمال و لم يكن عليه سوى أن يميل إلى الأمام ليجذبه شيء ما إلى الماء.

- لا تحطمي قلبي، يا شيللي.

وشدّها إليه. لم يحاول إغرائها بل أن يظهر حناناً موروثاً كان يجاهد غالباً لإخفائه.

وتابع يقول بسخرية: «إنما أي قلب بقي لي».

فتمتمت تقول: «لقد حطّمت الآلام قلبينا يا بروك».

- تأثير صدمات الطفولة وآلامها يدوم، إنما كان عليك أن تحصلي على عون.

أصبح رأسها على كتفه بشكل ما، أم لعله من وضعه هناك؟ هذا محتمل جداً، لكنها لم تبتعد عنه.

- قصتي ليست كقصتك يا شيللي، رغم أننا نشأنا في أسرتين من النوعية السيئة نفسها. ألم تتحدثي إلى أحد قط... طبيب نفسي مثلاً، عن صدمة طفولتك وحياتك منذ ذلك الحين؟

- إلى من أتحدث يا بروك؟ إنني أعيش في عزلة. أنا معجبة بالدكتورة سارة في مستشفى «كوميرا بوش» فقد بذلت جهدها في معالجة أمي. أما أبي فمليء بالمرارة من الحياة لأنه فقد ابنه الوحيد. الأبناء مهمون للرجال، خصوصاً لرجل مثل أبي، ولو أُعطي الخيار بمن يضحي، لاختارني أنا من دون ريب.

- كيف تستمرين في حبه وهو الذي تركك تعانين؟

تصلبت قليلاً، فقال: «لا تبتعدي عني».

- ما زال والداي يتألمان يا بروك، وهما ليسا بحاجة إلى أن أكرههما.

علّق بجفاء: «وهذا يجعلك قديسة صغيرة».

فأجابت بحدة: «لا أقول إنني لم أتساءل يوماً عمّا يبقيني مع أسرتي.

كنت أكافح من دون اهتمام من أحد، فكيف يمكن أن يعتبروني قديسة ... أعلم أنك تحاول أن تساعدني... وفي داخلي غضب كامن من المعاملة التي تلقيتها. لكن أظنني لن أهجر أسرتي أبداً».

- لكنك ستتزوجين بكل تأكيد، من الغريب أنه لم يختطفك بعد أيّ رجل مغامر، باستثناء ابن خالي.

- ربما لأنني أحمل من الأعباء ما لا يسمح لي بأي حياة حقيقيّة.

- رأيت وجه فيليب اليوم، وأظنه يحبك كثيراً. مجرد رؤيته لك معي دمرته.

كانت تشعر بقربه منها بقوة: «لا أستطيع أن أنكر أن فيليب أنشأ مودة بيننا. جاليتنا صغيرة نسبياً، هو يرافقني إلى الرقص وإلى كل مناسبة اجتماعية. إننا نتحدث كثيراً، لكنني أكرر أن ما من مشاعر غرامية بيننا».

- من الأفضل أن تخبريه بذلك.

فقالت بشيء من السخرية: «على أيّ حال، أمه تعتقد أن عليه أن يتركني، فأنا لست مناسبة له».

فقال: «إنها تسيء الحكم على الآخرين. أنت ترتجفين، أتشعرين بالبرد؟».

أخذت تدعك ذراعيها العاريتين: «عندما نمشي سأشعر بالدفء. هذه «البلوزة» رقيقة».

- إنها من النوع الذي أحب. اسمعي، آسف إذ ليس لدي ما أضعه حول كتفيك، ما عدا ذراعي طبعاً. لذا، تعالي.

ووقف ومدّ يده مضيفاً: «سنعود إلى الفندق».

كان عليهما أن يسيرا في طريقهما من دون أي مشاعر تعقّد سهرتهما لكن هذا لم يحدث فبروك رجل نشيط، ورغبته بحمراء الشعر الملتهبة بالحيوية هذه شديدة للغاية.

حتى الريح تآمرت عليه فأخذت تزداد قوة لتصبح حركتها دائرية.

وأخذت تشعث شعر شيللي. ورغم أنها وضعت يديها عليه على الفور إلاّ أن الريح استطاعت أن تحل الدبابيس التي تمسكه.

لم يكن قد حسب حساب ما يجري. قدرتها على أن تؤثر فيه، وأن تلفت انتباهه بكل سهولة، طغت على نواياه الطيبة. لم يكن يريد أو يحتاج إلى أن يتورط معها لكن مظهرهاوهي تتعارك مع شعرها الطويل الجميل الذي شعثته الريح، وهي تتمايل بقوامها الرشيق تجاهد كي تتخلص من خصلات شعرها الحريري التي تغطي وجهها، أثار فيه مخيّلته.

كان ضحكها فتياً للغاية بعيداً عن أيّ هم، أشبه برنين الفضة. كل هذا يدفع أي رجل حقيقي إلى أن يأخذها بين ذراعيه.

سرت رجفة في ساعديه القويين فقد تصورها بين ذراعيه حتى قبل أن تصبح بينهما.

وبقلب ممزق، ضمها إليه بشكل أصبح مستحيلاً عليها معه أن تنجو منه، ثم عانقها. مضت لحظة لم تحرك فيها ساكناً، فقد أصيبت بصدمة... لكنه ضمها إليه، هامساً باسمها: «شيللي!».

كان شعوراً رائعاً، الطفلة التي عرفها طوال حياته، تحوّلت إلى امرأة مغرية، امرأة قادرة على أن تسحره.

شهقت وقد غمرتها المشاعر الغريبة... حتى القمر والنجوم تبددت ولم تعد ترى سواه. حضوره كان مألوفاً وغريباً في آن.

راح يجاهد ليكبح مشاعره المعذّبة، عليه أن يتوقف لكنه لا يستطيع.

- انتظر.

- أنتظر ماذا؟

مدّ يده إلى عنقها حيث النبض يفضح مشاعرها بقوته وسرعته. وخافت يداه من التحرّك فبقيتا حيث هما.

هذه التي يعانقها هي شيللي لوغان، فهل نسي ذلك؟ كانت تميل عليه وشعرها الرائع على وجهها ووجهه، فودّ لو يدنيها منه أكثر، لكن نوعاً من النقاء يحيط بها.

وهكذا، تركها فجأة ما جعلها تتمسك بقميصه.

- بروك!

أمسكته بشدة وقد تشتت ذهنها، وتملكها قلق حقيقي فأوشكت أن يغمى عليها. شعرت وكأنها تطفو في الهواء.

قال بصوت جعلته المشاعر أجش: «لم أكن أقصد أن يحدث هذا».

- لم أحلم قط بأن تفعل هذا. هذا بعيد عن كل ما عرفته من قبل.

- لكنك أردتني أن أفعل هذا.

- أنا؟

وضغطت على صدرها بيدها وقلبها يخفق بجنون: «ظننتك ستعانقني حتى الصباح».

- هذا ما أردته صدقيني، لكنني اضطررت إلى ضبط نفسي.

جاهدت لكي تتكيّف مع تغيّر مزاجه الفجائي: «هل يمكنني أن أسألك عن السبب؟».

حدّق إليها بعنف: «أتريدين الحقيقة؟ إنك حلوة، وناعمة، وبريئة جداً، ولم أشأ أن ينتهي الموضوع بالدموع».

وفي ثوانٍ، استطاعت شيللي أن تجد القوة لتقف بعيداً عن جسده القوي: «لم تكن لترى دموعي يا بروك. لقد أدارت غزواتك التي لا تحصى رأسك. هذه ليست المرة الأولى التي تعانقني فيها على أيّ حال، ولم يلحق ذلك أيّ ضرر بي».

- حسناً، هل كان هذا أفضل أم أسوأ من آخر مرة؟

وتقدم نحوها خطوة، فتراجعت خطوة.

- فلنقل إنه أفضل من المصافحة.

فقال متهكماً: «هذا ما جعلك عاجزة عن الوقوف وحدك للحظات. لا أريد أن أكدّرك، لكن الوقت ليس مناسباً. إنه ليس وقت الخروج عن الطريق الصحيح حتى ولو وددت ذلك، فمستقبلي مهدد».

- ليس مني.

فأجفل: «وقع قولك هذا كوقع الصفعة».

- وأنت تستحق ذلك!

استطاعت أخيراً أن تسوّي شعرها، فقالت: «دعنا ننسى هذا وبإمكاني أن أفعل هذا».

ضحك ساخراً: «لا أظنك ستجدين الأمر سهلاً إلى هذا الحد، وأرجو ألاّ يجرح قولي هذا مشاعرك».

- أحقاً؟

ودفعته بكفها: «أنا منضبطة تماماً يا بروك تايسون».

أمسك بمعصمها وقال: «هل لديك فكرة عن مدى جمالك؟».

يا له من رجل قادر على أن يذيب امرأة من دون أن يضع يده عليها: «أنت من لديه صعوبات وليس أنا. والآن هل ستترك يدي؟».

ردّ ببطء: «لا. لكنني سأرافقك إلى الفندق. أليس هذا هو التصرّف المناسب؟».

فقالت بعنف: «بعد هذا ستقول لي إني مختلفة عن أيّ فتاة أخرى عرفتها».

عندئذ، علّق هازلاً: «طبعاً. فأنت الفتاة الوحيدة التي عانقتها ولم تغمض عينيها».

٣ - قلب من رصاص

أوقفت شيللي السيارة أمام بيتها، وهي تحاول أن تنسى رحلتها الطويلة الشاقة. انصبّ اهتمامها أثناء الرحلة، على عواصف الغبار التي لا مناص منها أثناء فصل الجفاف. إنهم بحاجة ماسة إلى المطر لكن رغم صلاة أهل البراري كلهم، لم تسقط قطرة ماء. ولولا الآبار في المركز، لألغت فكرة مؤسسة «مغامرة البراري» كلياً.

تمنت أن تجد من يساعدها على تفريغ السيارة. لكن لا فائدة من طلب العون من أماندا، فهي كسول للغاية، كما أنها لا تنفك تشكو من وجع ظهرها وخوفها من أن تؤذيه. كانت أماندا تتذرع بأي سبب لكي تتجنب أي مشقة جسدية، رغم أنها تمضي وقتها مستلقية، فهي لا تترك فراشها قبل العاشرة صباحاً. إنها تكتب أغانٍ جيدة و تعزف على البيانو والقيثارة بشكل حسن. أمّا شيللي فلم تتعلم العزف لأنّ أباها كان يرفض دوماً طلبها.

كان يبتعد من دون أن يطيل النظر إليها فرؤيتها تذكّره بأخيها التوأم.

حسناً . . . لقد عاشت الليلة الماضية تجربة رائعة، كان بروك تايسون خطراً بجرأته، وإن لم تكن متأكدة من ذلك من قبل، فقد تأكدت الآن.

وماذا عن فيليب؟ لقد خرج فيليب عن طوره وقال إنّ ثمة علاقة بينهما. ولا شك أنه فعل هذا ليحذّر ابن عمته. لكن هذا لا يعني أن بروك حسب لتحذيره حساباً.

لقد اختلفت الأمور الآن . . . حدث تحوّل ثوري في علاقتهما وهذا لا يعني أنها كانت ذات يوم إحدى صديقاته. كانت تصغره بسنوات،

www.elromancia.com

وها هو الآن يجرح كبرياءها بقوله إنه لا يريد التورط معها . . . ذلك الوقح!

ومع ذلك، أمضت الليلة كلها تتقلب في فراشها وتستعيد ذكرى ما حدث بينهما. إنه سحر أسود.

رأسها وقلبها ودمها وأعصابها لا تزال تختزن شوقها، رغم مرور عشر ساعات على عناقهما وعودتها إلى حياتها العادية الحافلة بالمشاكل.

لم يتحدثا كثيراً أثناء عودتهما إلى الفندق بل سارا في صمت مشحون. تمنّت أن يطول طريقهما الذي ينيره ضوء القمر. كان بروك قد أخبرها أنه سيرحل باكراً في الصباح، لكنه قبل دعوتها له لزيارتهم في وايبورن.

كان أبوها قد اعتاد على فيليب الذي حرص على أن يبدو محترماً جداً في حضور أبيها، أمّا بروك فشخص مختلف. إنه مزهو بالغ الحيوية، ولا يمكن أن يتظاهر بما لا يشعر به، كما يفعل فيليب، الرجل الذي لا يقول سوى «نعم».

لطالما أحاطت ببروك تايسون الأحداث المثيرة ومضات الشرر. إن بروك، على عكس فيليب، مستعد دوماً لأي شيء. وبروك كما اعترفت الجالية كلها، معروف بمشاعره السخية، ومن المؤكد أن أباها، وهو الرجل الدافىء القلب رغم أحزانه، شعر بالكراهية نحو وكس كينغزلي لمعاملته القاسية لحفيده العنيد.

كانت تعلم، في أعماقها، أنها ستقع في متاعب هائلة إذا سمحت لنفسها بالوقوع في غرام بروك، كما تعلم أن ترويضه بسهولة ترويض النسر.

كانت قد أنهت تفريغ نصف حمل السيارة، عندما ظهرت أماندا على الشرفة الأرضية، حافية وفي ثوب جميل وردي اللون خاطته بنفسها.

نادتها بمرح وهي تتكىء على الدرابزين: «هل عدت إلى البيت؟ هل كانت رحلتك جيدة؟».

- أنت تمزحين، كان الجوّ حاراً كالجحيم.

- لا بد أن يقوم أحد ما بهذه الرحلة، لكنني كتبت الرسائل التي طلبت مني كتابتها.

فقالت شيللي بجفاء: «شكراً، لا بد أنها استغرقت وقتاً طويلاً».

ثلث ساعة مثلاً . . . كماخطر لشيللي فيما قالت أماندا متملقة: «يا لك من فتاة صغيرة تقومين بكل الأعمال بنفسك».

فقالت شيللي وهي تحمل أربعة أكياس وتصعد بها الدرجات القليلة المؤدية إلى الشرفة: «لماذا لا تساعديني؟».

فأجابت أماندا وهي تجلس على كرسي: «في ما بعد. يا له من جو حار، فلنتحدث قليلاً أولاً. لا أظنك أحضرت معك بعض المرطبات، كولا مثلاً؟».

- لقد فعلت من أجلك.

- شكراً.

- لا تتوقعي مني أن أحملها.

- سيفعل ذلك أبي عندما يعود.

- وأين هو؟

- ينقل بعض الماشية. والآن، كان حبيبك هنا في الصباح الباكر. . . وأخبرنا حكاية هامة جداً.

- ومن هو حبيبي؟

طرحت شيللي سؤالها هذا وهي تعرف جوابه مسبقاً، فأسرتها تدفعها إلى هذه العلاقة مع فيليب.

- هيه . . . يا لها من نكتة، فيليب طبعاً. إذا أردت نصيحتي. . .

- لن أقبلها.

- لا تضيّعيه من يدك. كم عدد الشبان الأغنياء، الحسني المظهر، الذين يخطبون ودك؟

- يمكنني أن أذكر عدداً من الرجال الأغنياء في المنطقة.

وأخذت شيللي تعد بعض الأسماء.

- معظمهم متزوجون.

وتنهدت أماندا وهي تفكر في أنها لن تنسى أبداً ميتش كلايرون الذي تزوج مؤخراً حبيبة طفولته، كريستين ريردون. صحيح أن كريستين رائعة الجمال، لكن طولها مئة وثمانين سنتمتراً، فيما طولها هي وهو مئة وخمسة وسبعين سنتمتراً يعتبر مناسباً تماماً.

ألقت شيللي بنفسها على كرسي قبالة أختها وقد تملّكها الإرهاق، وأخذت تحرك مروحتها الصغيرة: «وماذا قال فيليب العزيز؟».

نظرت أماندا إلى وجه أختها طويلاً، قبل أن تجيب. لم تستطع أن تفهم يوماً كيف استطاعت أختها أن تحافظ على هذه البشرة الرائعة، بينما تضطر هي دوماً إلى استخدام حماية من أشعة الشمس، من دون أن تفلح في منع تكوّن نمش خفيف على أنفها. هذا ليس عدلاً. ونظرت إلى أختها متفحصة: «إذن، فقد عاد بروك تايسون؟».

قالت شيللي بهدوء آملة ألاّ يكون الاحمرار قد صبغ وجهها: «أراد جده أن يعود».

- لا بد أن السيد كينغزلي يموت؟

- ألم يخبرك فيليب بذلك؟

- أبداً. كل ما قاله هو إنّ جده لم يعد بصحة جيدة.

- لماذا لا يتحدث عن الأمور كما هي؟ هذه هي عادة فيليب وأمه. إنهما كتومان دوماً. إن ريكس كينغزلي يموت.

- لا بأس، لا حاجة بك إلى الاستياء. المفاجأة الكبرى الحقيقية هي أنك كنت تتعشين مع بروك!

فقالت شيللي، محاولة أن تبقي لهجتها طبيعية: «هذا صحيح».

فحدّقت أماندا إليها: «هل من أمر آخر؟».

- ماذا تعنين بقولك هذا؟

شخرت أماندا ساخرة: «هل نسيت أنني أختك؟ في السادسة عشرة من عمرك كنت مفتونة به للغاية».

- لم أكن الوحيدة في ذلك. كان ولا يزال فاتناً.

- لكنه مشكلة. لقد تخلّى عن كافة الفرص.

- أي فرص؟ إنه حفيد كينغزلي، ولا بدّ أن هذا يعني شيئاً... علاقة الدم؟

- ليس بالنسبة إلى ذلك الطاغية العجوز، إنه مخيف. لديه الكثير من الأراضي، والقوة، والنفوذ والمال. لا بد أن مقولة أنّ القوة تفسد النفوس صحيحة. كيف يبدو بروك هذه الأيام؟ ألم يكن جذاباً؟

فقالت شيللي بجفاء: «لا تخافي! لم يفقد شيئاً من ذلك. إنه وسيم كما أصبح لديه شخصية حقيقية هذه الأيام».

- دعينا نسميها غطرسة. فأنا أتذكره شخصاً متغطرساً.

لم يكن بروك يهتم بأماندا ما يجرح غرورها.

- لعله شديد الثقة بالنفس بتينك العينين المضيئتين الرائعتين.

- لا بد أنه ورثهما عن أبيه الهارب، لا عجب في أن جده يكرهه لأنه يتذكر فيه الأب.

- إن مظهر بروك كمظهر جده، بملامحه المنحوتة، وطوله. مظهر الجد المهيب تماماً.

- لكنه مخيف، تعشيتما معاً إذاً؟

ومالت أماندا إلى الأمام وأمسكت بيد أختها.

- وماذا كنت تتوقعين؟ سهرة من نوع آخر؟

كادت قبضة أماندا الكسول المتراخية عادة أن تحطم عظام يد تشيللي، وهي تقول لاوية شفتيها باستعلاء: «ليس معك، فالشبان يقولون إنك لا تُشبعين الرغبة».

- بينما أنت تفعلين ذلك. سمعتك معروفة يا أماندا.

وتنهدت شيللي، فقالت أماندا بحدة: «لا تتظاهري بالتقوى والصلاح، هذا لا يقلقني على الإطلاق».

- ربما عليك أن تقلقي.

www.elromancia.com

أظلم وجه أماندا: «أنت غيورة».

- أمرك يهمني يا أماندا لأنك أختي، ربما عليك أن تتدللي على الرجل وتظهري بعض التحفظ لتحصلي عليه.

- أنت تقولين هذا لأن ميتش كلايرون طردني.

- لم يطردك يا أماندا، لكنه لم يكن جاداً. ثمة امرأة واحدة في حياته وهي كريستين، إنها جميلة، وهي صديقتي.

تأوهت أماندا ولمست صدغيها وكأنها تشعر بألم مبرّح: «كفى، لقد نسيته، ولا تتكلمي عنها أكثر».

- هذا حسن جداً، فهو متزوج الآن.

قطبت أماندا وسألت: «متى سترين بروك مرة أخرى؟ إذا قرر أن يبقى في هذه النواحي، فقد أوجّه اهتمامي إليه. أنت لديك فيليب، أمّا أنا فقد حان الوقت لأستقر. أكاد أتجاوز الخامسة والعشرين وأنا جميلة ومتألقة وموهوبة».

وبدت على وجهها مسحة عذاب، فقالت شيللي وقد تملكها قلق مفاجيء على أختها: «لا تقلقي يا أماندا، سوف يأتي الرجل المناسب. هوّني عليك وحسب. لكنني أرجوك ألاّ تخبري الآخرين أنني وفيليب حبيبان، فنحن لسنا كذلك، لا أريد أن أضلّل الناس وخصوصاً فيليب، وأنت ماهرة في نشر الشائعات».

كان ينبغي عليها أن تضيف أنها تثير الشقاق بين الناس لأن شقيقتها ماهرة في ذلك أيضاً.

ردّت أماندا عليها بغيظ: «إسمعي، أتريدين أن تستمتعي بالحياة أم تقتلي نفسك بالعمل؟ أبوانا سيستمران في الحزن على سين إلى الأبد. ستموتين من العمل الشاق من دون أن يهتما بك لحظة، لماذا لا تصغين أيتها الحمقاء؟ إذا طلب فيليب منك الزواج، وسيفعل ذلك إذا شجعته، فاقبلي. إنه يهتم بك، وسيكون هذا أفضل للأسرة أيضاً. أنا أعرف شبان عديدين يهتمون بك، لكن فيليب هو أفضلهم. إبقي متحفظة وتدللي عليه

فيبحث عن فتاة أخرى».

- فليبحث. لعلي أحاول حالياً أن أساعد أسرتي، لكنني لن أنتحر من أجلك. والاختلاط بفيليب وأمه هو الانتحار بعينه.

فقالت أماندا عابسة: «يا لها من مسرحية مثيرة!».

- لا أظن ذلك. قد يتخذ الإنسان قراراً خاطئاً في الحياة فتكون عاقبته سيئة. الزواج بدافع الحب شيء، وزواج المصلحة شيء آخر لأنه سيسبب لي ولاحترامي لنفسي ضرراً دائماً. الانسان لا يقع في الحب عند الطلب، يا أماندا.

- اكبري!

صرخت أماندا بذلك بإحباط ثم أردفت: «ليس عليك أن تقعي في حبه لكي تتزوجيه. إذا كان الزواج جيداً، فلا يعود للحب أيّ أهمية. ما على المرأة أن تسعى إليه هو حياة آمنة مستقرة، رجل يرعاك، ويؤمن لك ما تريدينه في الحياة.. من الأفضل أن يحبك فيليب لا أن تحبيه أنت، فهذا يمنحك نفوذاً عليه. كما أن فيليب شاب حسن. صحيح أنه عنيف قليلاً، لكنه وسيم المظهر، أو سيصبح كذلك إذا نصب قامته ورفع رأسه، وبإمكانك أن تجعليه يفعل ذلك. وإذا كان العجوز كينغزلي يحتضر، فإن فيليب جاهز ليأخذ مكانه».

بدأت شيللي تنزعج من هذا الحديث، فسألتها: «أنت لا تؤمنين بهذا حقاً، أليس كذلك؟».

كانت تشعر بضيق حقيقي لأنّ الأسرة تدفعها نحو فيليب، علماً أنها اتخذته صديقاً لترضي والديها.

- ما أعنيه هو أن فيليب سيرث جده، أتدركين ما يعني ذلك؟ ستصبح لديه ثروة.

هزت شيللي رأسها. كان الحرّ قد جعل خصلات شعرها تلتصق بخديها وجبهتها ما منحها مظهراً بريئاً كان دوماً ميزة في توأمي لوغان، وقالت: «فيليب لن يدير أبداً أملاك كينغزلي. أنا أعلم أنه مجتهد في

عمله، ولكن يبدو أنه لن يتمكّن من الحصول على نتيجة. لم يولد ليكون قائداً كما أنه لا يعامل رجاله بالحسنى. أنا نفسي أفضل منه في معاملة رجالنا. فريقنا الصغير يعمل بانسجام من أجلي غالباً. إن فيليب ينقصه النفوذ، ومشكلته أنه لم يكن قط مستقلاً».

نظرت أماندا إليها باشمئزاز: «وماذا في ذلك؟ إن ما نتحدث عنه هو المال، والمركز، المنزل الريفي وما حوله من أبنية وأراضي. إنه ما زال فخماً لكنه بحاجة إلى صيانة. لم يكن مسموحاً لفرانسيس أن تلمسه، ولكن بإمكانك أن تفعلي. نحن فنانتان وبإمكان فيليب أن يستأجر رجالاً ومراقب عمال، ليقوموا بكل العمل المطلوب».

فقالت شيللي ببساطة: «ماذا عن ابن عمته بروك فهو أيضاً حفيد».

ألقت عليها أماندا نظرة طويلة ذات معنى: «لا أظنك تعتقدين أن كينغزلي سيفضّل بروك على فيليب. فيليب هو الأكبر، وهو الوحيد الباقي. وإذا كان ما سمعناه صحيحاً، فلن يحصل بروك على شيء».

- ولكن لماذا أرسل جده بطلبه؟

مضت لحظة أخذت فيها الشقيقتان تنظران إلى بعضهما البعض بصمت، وأخيراً قالت أماندا: «ولكن لماذا جاء؟».

- ولماذا لا يفعل؟ في الواقع، أموال بروكواي هي التي أسست أملاك كينغزلي. ألا نعتقد جميعاً أن ريكس كينغزلي أقنع زوجته بأن تعطيه أموالها كلها؟

فقالت أماندا متهكمة: «ولماذا لا يفعل ذلك وهو الجشع المحتال؟».

- في عروق بروك يجري دم آل بروكواي. كانت جدته تعبده، لكنها ماتت.

ضحكت أماندا ساخرة: «ربما كانت مسرورة لذلك. لا أريد أن أكون مكان ريكس كينغزلي حالياً. هناك الحساب الأخير».

فقالت شيللي بهدوء: «أنا أؤمن بذلك، لقد عامل بروك بشكل سيء للغاية. هل أخبرك فيليب عن أمه؟».

- أنها ماتت؟

- يا للمرأة المسكينة، لم تعش طويلاً.

فقالت أماندا متحدية فجأة: «وذنب من هذا؟ عليك أن تتعلمي شيئاً من الحياة، عليك أن تتخذي أهدافاً تتطلعين إليها. لا يمكن أن تلتصقي بالأدغال اللعينة. لماذا عادت مع زوجها إلى مولغاري؟ حسناً، لقد عادت إلى أبيها، لكن لا بد أنها كانت تعلم ما ينتظرها».

- كان لديها طفل من دون مال. كانت صغيرة في السن، وأكثر عجزاً من كثير من الناس فعادت. الأميرة التي لم يُسمح لها قط بالخروج من القصر، وقد حرص كينغزلي على ذلك.

- ولكن كان لديها زوجها.

- لا يمكنني أن أجيب عن هذا السؤال يا أماندا. المرأة المسكينة ماتت، لكن بروك عاد، وهو من سيستلم العمل.

- رباه، من الأفضل ألاّ تدعي فيليب أو أمه يسمعانك تقولين هذا. أنت تكادين لا تعرفين بروك، وأنا أعرفه أكثر مما تعرفينه، عند رحيله كنت أنت صغيرة. كان عليك أن تدعيه لزيارتنا، ألم يخطر هذا في بالك؟أم كنت مستعجلة للتسوّق؟

- لقد فعلت هذا، في الحقيقة.

قفزت أماندا واقفة: «ماذا؟ وماذا قال؟».

- قال إنه سيأتي.

- هذا عظيم. أنت تقومين أحياناً بعمل حسن. في الماضي، كان بروك يهتم بي.

قالت شيللي بحدة أكبر مما كانت تنوي: «الاحتمال الأرجح هو أنك أنت التي كنت مهتمة به».

بروك وأماندا؟ لا، لا، لا!

- حسناً، لكنه لم يكن يهتم بك، وهذا مؤكد. ماذا سيحدث إذا علم فيليب أنك تميلين إلى بروك؟ ستكونين حمقاء حقيقية إذا عرضت علاقتك

www.elromancia.com

به للخطر، لا سيّما الآن وهو على وشك الحصول على الثروة. من الأفضل أن يظن أن بروك جاء من أجلي، فأنا محبوبة جداً عند الرجال.

وأخذت تسوّي ثوبها المغري بشكل لا يُنكر.

فقالت شيللي: «سأدع لك أمر إخبار أبي أنني دعوت بروك لزيارتنا. سيتقبّل الأمر منك بشكل أفضل».

- لا بأس، فأبي يحبني لأني أول أولاده، كما قد يقع بروك في غرامي.

كانت تتحدث بحماسة وقد توهج وجهها، فقالت شيللي بجفاء: «سأدهش كثيراً إذا حصل هذا».

- عليك أن تحاولي التخلص من غيرتك. أنا أكره منك هذا.

فقالت شيللي تحذرها: «أنا واقعية فقط، ولا أدري إذا كنت من النوع الذي يحبه بروك، يا أماندا».

- إنه رجل، أليس كذلك؟

قالت أماندا هذا بلهجة مطاطة وهي تشبك أصابعها ثم تمدّ ذراعيها إلى فوق رأسها برشاقة: «لعلنا لم ننسجم معاً في الماضي، إلاّ أنه أصبح لديّ الآن خبرة واسعة. إذا ذكر كينغزلي بروك في وصيته عن طيب خاطر، فسيصبح الأمر مختلفاً، وسنعلم أنني وجدت الرجل المناسب».

ووضعت أماندا يدها على يد أختها: «أتعلمين يا شيللي؟ من الغريب أن هذا يبدو لي وكأنه القدر».

أجفلت شيللي وهي تدرك أن أختها جادة، وإذا جاء بروك لزيارتهم فإن أماندا ستسرع جادة إلى العمل على تحقيق حلمها. ولأول مرة في حياتها، شعرت أنها لا تستطيع احتمال ذلك.

* * *

كان جد بروك مستلقياً في سريره الواسع. ما كان يوماً جسماً جباراً، بدا اليوم نحيلاً تحت الأغطية. ولم يكن هذا التحوّل المخيف ليسرّ بروك إذ لم يشأ أن يرى جده الجبار يتغيّر بهذا الشكل. حتى الوجه الوسيم الصارم

تغيّر. بدا شحوبه واضحاً، والخطوط العميقة في وجهه تنبىء بأنه غير راضٍ عن نفسه وماضيه.

جلست الممرضة بجانب سريره باتزان وهدوء.

رفعت نظرها وأشرق وجهها: «أهذا أنت يا سيّد تايسون؟».

سألها بهدوء: «كيف حاله؟».

- حاله غير حسن اليوم. لكنه كان يرجو أن يراك.

- شكراً، سأجلس بجانبه فترة، يمكنك أن تأخذي فترة راحة.

- أتريدني أن أحضر لك شيئاً؟ شاي، قهوة؟

ابتسم لها وقال: «شكراً».

- لن أبتعد.

واحتل مكانها بجانب سرير جده الفيكتوري الطراز.

ستتغير الأمور بعد رحيل جده بشكل مثير. كانت فرانسيس، والدة فيليب، تتصرف وكأنها سيدة مولغاري، بصفتها والدة الوريث الظاهر.

غطى بروك وجهه بيده وهو يفكر في ما يفعله هنا. إنه يكره هذا الرجل، ليس لما فعله به بقدر ما فعله بأمه. وأخذ يسأله في سرّه، عما جعله يفعل هذا بأمه؟ هل لأنها أحبت الرجل الذي كان هو يحتقره؟

كانت أمه تصرّ دوماً على أن أباه لم يكن قط رجلاً ضعيفاً، بل على العكس. كان يشعر بالغضب والثورة لأنه أجبر على العيش في «مولغاري». السبب الوحيد الذي جعله يبقى هو قوة حبه لها ولابنه. فأي ثمن دفعه؟

كان بروك يعتقد دوماً أن جده مسؤول عن اختفاء أبيه، فثمة طبقات وطبقات من الغدر والخداع وراء هذا الوجه القريب من القبر، على الوسادة.

وإلاّ ما الذي يجعله يُنزل بمن يفترض بهم أنهم تحت رعايته، أقسى العقوبات؟ كما استطاع فيليب وأمه أن يقلّبا الجد كينغزلي ضدّه وضدّ أمه حتى طردهما.

لقد أدرك الآن أن رحيلهما كان نجاة حقيقية لهما، فقد انسحب وأمه من معركة خاسرة. ومع ذلك كانت أمه تردد دوماً: أنت مستقبل «مولغاري» يا حبيبي، الرئاسة ستكون لك.

إنه يكاد يسمع صوتها يتردد في رأسه. كان سهلاً عليه أن يصدّق ذلك لا سيّما وأنّ حب الأرض يسري في عروقه. وهذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع جده العجوز أن يفهمه.

جدي هو عدوّي، فلماذا أثق بأنه سيغيّر وصيّته؟

وراح يفكّر في شيللي لوغان، التي قدّمت له الليلة الماضية راحة غير عادية من أحزانه، وإثارة خطرة للغاية. إن شيللي تعرف الكثير عن الألم وهو لا يرغب في أن يزيد من آلامها، وهو سيؤلمها حقاً إذا أصبح امتداداً لجده.

هل ورث فعلاً شيئاً من قسوة كينغزلي؟ لعله سيرث شيئاً من شخصية كينغزلي إذا ما استلم دوره . . . فالسنوات التي أمضاها بعيداً عن جده و«مولغاري» شكّلت له صورة جيدة عن نفسه.

ثمة الكثير من الآلام والصدمات والجراح التي تحيط بالرجل العجوز. ومع ذلك كان يعرف أي حفيد يجب أن ينتصر إذا وصل الأمر إلى القتال من أجل الميراث. من لديه العزيمة، والقوة، ومن بإمكانه أن يحفظ ما بناه هو. لم يكن الندم أو عمل الخير ما جعل كينغزلي يتوسّل إليه كي يعود إلى الوطن، بل هو خوفه من أن ينتهي حلمه بين أيدٍ غير أمينة. لا يهم مدى كراهيته لبروك، فهو يحتاجه الآن ليحكم إمبراطوريته بعد موته. والآن وبعد أن أحضره إلى البيت، سيموت كينغزلي سعيداً لعلمه بأن اسمه وكفاح حياته سيبقيان سالمين.

أبعد بروك يده عن رأسه ليدرك فجأة أن جدّه يحدّق إليه.

سأله جده بصوت أجش: «من أنت؟ ابتعد من هنا».

بدا طاعناً في السن إلى حد شعر معه بروك بإشفاق غريزي عليه: «أنا حفيدك. طلبت مني أن أعود إلى الوطن. هل نسيت؟ أنظر إليّ جيداً. أنا

بروك».

تابع كينغزلي التحديق إليه وكأنه عدوّه، ثم صرخ به وقد بدا الذعر في عينيه: «ابتعد عني. عد من حيث جئت».

تنفس بروك بعمق ووقف: «إهدأ أيها العجوز، أنا ذاهب».

لا بد أن الحبوب المضادة للألم جعلت عقل كينغزلي مضطرباً.

- دعني أموت بسلام.

هل ما سال من عيني الرجل العجوز دموع؟

- لن أزعجك.

بروك الذي أقلقه أن يكون قد ورث الكثير عن هذا الرجل العجوز، استجاب لطلبه هذا. بدا له جده وكأنه مات فعلاً، فقال له: «سأرسل إليك ممرضتك».

صدرت آهة من السرير أشبه بشخرة الموت: «أنا دمّرتك».

للحظة، صحا عقل كينغزلي. واستدار بروك يسأله: «أهذا هو الأمر؟ هل أردت أن تفصلني عن الأسرة؟ وهل لهذا أعدتني إلى هنا؟ لكي تكمل زرع الشقاق بيننا؟».

وإذا بوجه كينغزلي يتألق بلهفة محمومة: «أين ابنتي؟ أين كاترين؟».

أجابه بروك بخشونة: «لقد ماتت».

حاول تهدئة نفسه لكنه كان متكدراً للغاية لسماعه اسم أمه وتابع: «كما ستكون أنت قريباً».

وخطر له أنه قتلها لكنه لم يكن من القسوة بحيث يقول له هذا بل أردف: «لقد تحررت أخيراً».

- يا إلهي، يا دانييل.

صدر هذا الصوت من السرير بقوة أدهشت بروك. لقد صحا ذهن كينغزلي فهو الآن مليء بالألم، ألم سرى في جسده كلهب النار. الحبوب التي يفترض فيها أن تخفف من عذابه تصبح عديمة الفائدة بعد فترة قصيرة.

- دانييل . . . هنا . . . عد إلى هنا.

كان عليه أن ينهي هذه المعركة. الحب المدفون في أعماقه لحفيده الأصغر كان يكافح للظهور.

عاد بروك إلى السرير: «ماذا تريد؟ أنت بحاجة إليّ، أليس كذلك يا جدي؟ كيف يمكنك احتمال كل هذا؟».

وبشكل مذهل، اختطف كينغزلي يده وكأنما في التواصل الحسي ما يساعد على احتمال الآلام الفظيعة: «أنت كنت الصبي الذي لا يشعر بالخوف، الحفيد الذي لطالما أردته. شاب لا يرضى بالحياة العادية، تعلم أنني أحببتك».

سأله بروك بمرارة عميقة: «أهذا ما جعلك تعاملني بذلك الشكل السيء؟».

حاول بروك أن يسحب يده من يد جده لكنه تشبث بها: «أرغمتني على ذلك لأنك كنت عنيفاً، لكنني كنت فخوراً بك، فخوراً بالطريقة التي تختفي بها. كنت أرسل الرجال للبحث عنك، أحسن مقتفي الأثر من السكان الأصليين. لكنك كنت تتوحّد مع الصحراء».

- ربما كانوا يتعمدون البحث حيث يعلمون أنهم لن يجدوني.

كان الرجال أوفياء لكينغزلي بسبب الخوف لكنهم اعتادوا أن يغضّوا الطرف حين يهرب.

- أعلم أنهم كانوا يحاولون حمايتك، لكن لم يكن لديهم الحق في ذلك، فأنا جدك، وكان عليّ أن أفعل ما أظن أنه الأفضل. كان عليّ أن أمنعك وأعيدك. كان أبوك متشرداً.

- من الأفضل أن تترك موضوع أبي جانباً. لطالما ظننت أن لديك ما تخبرني به عن اختفاء أبي.

- لقد هرب، تركك أنت وأمك.

وتفرس الجد في وجهه: «أتعلم أن لديك عينيه؟».

- يبدو أنك لا تستطيع مواجهة ذلك.

حرك كينغزلي رأسه على الوسادة: «كنت وكاترين على علاقة ممتازة، كنت أعبدها، أعطيتها كل ما أرادته».

- ما عدا الحرية.

-لم تحب أباك قط إلى حدّ ترغب فيه أن تتركني.

وارتسم على وجه الرجل العجوز انتصار غريب: «منعتها من أن تراه فأبت أن تطيعني. لم أتصور أبداً أن تفعل شيئاً كهذا. لكنني أحبها».

- والآن أنت تبحث عن الغفران قبل أن تقف أمام خالقك؟

فقال بابتسامة ميتة: «هذا صحيح، هذا ما يفعله الإنسان عندما يصبح قدوم ملاك الموت وشيكاً».

- أتمنى لو أستطيع أن أغفر لك، لكنني لا أستطيع يا جدي. هذا النوع من الغفران مات مع موت أمي.

لكن العجوز قال فجأة وهو يشير إلى ظل في آخر الغرفة المظلمة: «لكنها هنا الآن».

كان في صوت جده من الاقتناع ما كاد يجعله يلتفت. لكن هذا جنون، فالعجوز يهذي. قال له: «لا، لقد فقدتها إلى الأبد».

- إنها تقف خلف كتفك بالضبط، وقد تصالحت معها.

- ماذا عن الآخرين؟ فيليب وفرانسيس؟ أنت لم تبعدهما. وقد سمحت لفيليب بأن يعتقد أنه وريثك.

- كانا يعتنيان بي. لقد حققت وعدي لك كما أخبرتك، «مولغاري» لك. العالم الذي خلقته أنا هو لك طوال الحياة لتورثه لاحقاً لابنك، حفيد كاترين.

- هل جعلك هذا تشعر بتحسن كبير؟

كان هذا تكفيراً بسيطاً.

- هذا ما يجب أن يكون يا دانييل. لقد راهنت على فيليب، لكن فكرة استلام فيليب للأملاك والأعمال مخيفة. أنا نادراً ما أخطىء لكنني أخطأت بالنسبة إليه. ليس لديه الشجاعة والقوة لمواجهة الأمور.

www.elromancia.com

- وما الذي جعلك تثق في أن لديّ ذلك؟

- لقد استطعت احتمال ومواجهة كل ما حصل لك. إنك خشن وهذا مهم. ويجب أن تكون في عالم الرجال وأنت مناسب لتكون الرمز الحيّ لأملاك كينغزلي. ولهذا، أريدك أن تغيّر اسمك إلى كينغزلي. إنك دانييل بروكواي كينغزلي.. هل فهمت؟

- أتريدني أن أتخلّى عن اسم أبي؟

- لم يكن أباً لك قط. أنا الذي أنشأتكما، أنت وابن خالك. لقد جعلت كاترين وفرانسيس آمنتين مرتاحتين. لم تكونا بحاجة إلى شيء. ما عدا الحب والرضا من رجل ذي قلب من رصاص...

٤ - عاشق النساء

ليس على النهاية أن تأتي بسهولة، على ريكس كينغزلي أن يتلقى العقاب. لقد أمضى ليلة مضيئة حيث أخذ يدعو الله.

عند الفجر أعطته الممرضة إبرة أخرى من المورفين. أدهشها أن يبقى مريضها حياً رغم أنه مرّ بلحظات بدا فيها وجهه أسود من الألم.

كان الجواب بسيطاً... إنها إرادته الحديدية.

علمت الممرضة أن محامي السيد كينغزلي سيأتي في اليوم التالي بالطائرة. وكان المحامي قد قام برحلة أخرى طويلة منذ أسابيع، لكن ريكس كينغزلي أجبره على العودة مرة أخرى.

رأت فرانسيس كينغزلي، وهي سمراء فاتنة في منتصف الخمسينات من العمر، في خبر حضور المحامي إشارة سيئة لها ولابنها.

سألت ابنها: «ما الأمر برأيك؟ هل استطاع بروك أن يعود متسللاً إلى قلب جدك وينال حظوة لديه؟».

كان صوتها مزيجاً من الخوف والإحباط، فعبس فيليب: «بروك ليس من الذين يتسللون».

كانت الغيرة في صوته أقوى من الغضب. فقالت بقوة وقد تذكرت أن فيليب كان يتلهف إلى أن يصبح مثل ابن عمته: «لا يمكن أن يفضّله عليك. إنك الأكبر، وأنت موجود هنا على الدوام. سنجاهد حتى النهاية».

فقال بمرارة: «يا إلهي، ألسنا نقوم بذلك فعلاً؟ ألم يخطر لك أن استدعاء جدي لبروك ليمضي الليل معه، علامة ذات معنى؟».

www.elromancia.com

فقالت هازئة متلهفة إلى تصديق ما تقول: «هذا ليس حباً. الرجل العجوز يحاول أن يحصل على الصفح. لعله كان يعتبر نفسه فوقنا جميعاً، لكنه ليس مساوياً لله. إنّ ريكس كينغزلي مليء بالذنوب».

فقال فيليب ضاحكاً بتهكم: «ونحن أيضاً».

وحاول أن يُبعد شعوره بالذنب الذي ازداد منذ علم بموت عمته قبل الأوان.

فانفجرت أمه تقول: «ما كان لك أن تقول هذا، يا فيليب. لقد فعلت ما كان عليّ أن أفعله لأضمن لك الحصول على «مولغاري».

فأحنى فيليب كتفيه: «أعرف هذا، لكنه كان ظلماً يا أمي. ذلك الكذب الذي قلته عن بروك وعن عمتي كاترين. لطالما كانت لطيفة معي، لكنك كنت فظيعة مع بروك. أنا آسف لموت عمتي كاترين. ما كان لهذا أن يحدث، وفي تلك البلاد البعيدة! أنا نادم على أمور كثيرة. تلك الأكاذيب كلها!».

فقالت متهكمة من دون خجل: «على أيّ حال، لقد صدّقها. ستندم أكثر بكثير إذا استطاع ابن عمتك أن يحل محلك».

- علينا فقط أن ندعو الله يا أمي، ألاّ يحدث ذلك.

كان فيليب متلهفاً لنيل إرثه، لكنه خائف من كل ما سيرافق ذلك.

لن يكون أبداً كجده... أبداً! ومن ناحية أخرى، يمكنه أن يرى بروك وقد أمسك بزمام الأمور. لقد كسب بروك، حتى في أعنف مواقفه، مودّة الرجال واحترامهم، لا سيّما بعد أن ردّ لكمة جدّه بلكمة مماثلة. ما زال منظر جده بعد تلك اللكمة منطبعاً في ذهنه.

قالت فرانسيس وهي ترى الفزع في عيني ابنها: «أظن أنّ بإمكاننا أن نمنع ذلك».

- لا يا أمي، قد يكون جدي على فراش الموت، لكنني لا أقلل من شأنه أو من قدراته العقلية. كما لن أفكر في تسريع الأمور، فممرضته لا تبتعد عنه.

قالت فرانسيس وهي تدس أصابعها في شعرها الأسود الأنيق: «وكأنني لا أستطيع تدبر أمر تلك المرأة».

ثم أردفت: «إنك من يقلّل من شأن تعجيل...».

- تعجيل ماذا؟

أجفل الاثنان لظهور بروك الفجائي في الغرفة. لقد دخل بخفة النمر، كما خطر لفيليب وهو يتساءل عما سمعه من حديثهما.

لكن بروك لم يسمع سوى الفقرة الأخيرة.

رأى ما يشبه الخوف في عيني فرانسيس التي قالت ببساطة باردة: «عليك أن تهتم أكثر بسلوكك يا بروك. لم تكن حسن السلوك قط، هذا حديث خاص».

- من الواضح أنه عن جدي.

لم يخفِ بروك ازدراءه لها، وهي عدوة أمه.

حملق فيليب فيه: «جدك؟ هل أصبح جدك الآن؟ لطالما كنت تنعته بالعجوز أو باسمه كينغزلي».

سمّر بروك عينيه اللامعتين على ابن خاله: «انتبه إلى كلامك يا فيليب. في الواقع، عليك أن تنتبه إلى كل شيء».

- أنا لا... لا أفهم ما تعنيه.

قال بروك بلهجة خطرة: «بل أنت تعلم».

سألته فرانسيس غاضبة: «ماذا تريد يا بروك؟».

- لا تستعجلي الأمور يا فرانسيس. هذا شأني في الواقع، وليس شأنك، لكنني لا أمانع في أن تعلمي. أريد مفاتيح طائرة الهيلوكوبتر، لديّ رحلة صغيرة.

اندفع فيليب واقفاً: «حسناً، لا يمكنك أن تأخذها».

فنظر بروك إليه وكأنه كان يتوقع ذلك: «لماذا؟ لقد حدثت العجوز بشأنها».

قال فيليب مستفظعاً الأمر: «لا أصدّق هذا. متى تعلّمت قيادة

الهيلوكوبتر؟».

ردّ بروك: «أتظنني سأحاول القيادة من دون رخصة؟ المشي أكثر أماناً. إطمئن يا فيليب، لقد قدت الطائرة خمسة آلاف ساعة في إيرلندا. اعتدت أن أقود عبر انكلترا وفرنسا».

فشخرت فرانسيس ساخرة: «يا لك من ماهر يا بروك».

ما من شيء لا يحسنه الغلام، وقد أصبح الآن رجلاً ما يعني إزعاجاً أكبر. كان بروك ماهراً وطموحاً بالرغم من عادته السخيفة في أن يقدّم سعادة أمه ورفاهيتها على سعادته ورفاهيته.

والآن، وبعد أن رحلت كاترين، أصبح طموحه حراً طليقاً.

تمتم فيليب وهو يتوجّه إلى مشجب مستطيل عُلّقت عليه مفاتيح كثيرة: «هذه الهيلوكوبتر لها محرك مختلف تماماً».

قال بروك بصوت متزن، وهو يسدّ الطريق أمام ابن خاله: «سأحضرها بنفسي».

سأله فيليب متحدياً وهو يسلمه المفاتيح مكرهاً، كعادته مع بروك: «إلى أين ستذهب بها».

– إلى «وايبورن». وعدت شيللي أن أزور مكان عملها مع السياح.

هتف فيليب بفظاظة وفيض من المشاعر: «شيللي؟ شيللي لي أنا!».

فقال بروك بهدوء امتزج بشيء من احتقار: «هذه تمنيات، يا رفيق».

عندئذ، صاحت فرانسيس بابنها غاضبة: «أسكت يا فيليب، أسرة لوغان نكرة عديمة الأهمية. علمت أن الأم تلازم غرفتها طوال النهار، و البنت الكبرى أماندا أفضل من المومس بقليل، أما شيللي...».

تجرأ فيليب على أن يرمق أمه بعداء سافر وقال: «لا يمكنك أن تسيئي إلى شيللي! إنها جميلة للغاية وهي جيدة وحلوة وذكية».

منح بروك ابن خاله ابتسامة جمعت بين السخرية والعطف: «كدت أنسى أن لديك نزعة إلى التهذيب، يا فيليب، أنت على صواب بالنسبة إلى شيللي. في الواقع، هي قريبة من الكمال».

فقال فيليب وعيناه تلمعان: «ارفع يدك عنها. إنها فتاتي وعندما يحين الوقت سأطلب منها أن تتزوجني».

قاطعته فرانسيس ثائرة: «على جثتي! ثمة فرق شاسع بيننا وبين آل لوغان. لا بأس، أنا أعتذر بالنسبة إلى شيللي لكنها الوحيدة في أسرتها التي يمكن أن يدعوها المرء إلى بيته».

هتف فيليب بصوت أقرب إلى البكاء: «يا لك من متكبرة يا أمي!».

وتدخّل بروك: «إنه تكبر من دون أساس حقيقي. ألم يكن جدي يعتقد أن خالي آرون تزوج امرأة أقلّ منه شأناً؟».

احمرّ وجه فرانسيس: «كيف تجرؤ يا بروك؟ أسرتي محترمة للغاية، ولا أحتمل أن أسمع كلمة ضدها. أنا لم أصدمهم بالهرب مع مغامر مفلس، كما فعلت أمك الغالية».

فقال بروك: «كنت تغارين منها إلى أقصى حد. يا لذكرى أبي كيف انطفأت، لأنه لم يكن «يهوذا» الخائن وهذا ما يمكنني أن أقوله عنك يا فرانسيس. والآن انتهى المزاح... وأرجو أن تسمحا لي»،

ومدّ بروك يده ليأخذ مفاتيح الطائرة، فقال فيليب بشكل غير متوقع: «كان يمكنك أن تسألني، كنت أخذتك بنفسي».

– تعال معي، إذا شئت.

بدت الصدمة على وجه فيليب: «هل أنت جاد؟».

– أنا لا أضيع الوقت في ما لا أعنيه. في الواقع، شيللي هي التي اقترحت ذلك.

أغمضت فرانسيس عينيها وكأنها تتألم، وعندما فتحتهما حملقت في ابنها: «أنا أمنعك من الذهاب، يا فيليب. مكانك هنا. جدك قد يموت في أي لحظة».

– من الأفضل ألاّ يبقى، لأن الجد لن يموت قبل أن يقوّم شؤونه. إنه ينتظر وصول محاميه جيرالد ميتلاند. جيرالد الطيب! هل ما زلتما صديقين، يا فرانسيس؟

وسمّرها بروك بعينين ساخرتين.

فرانسيس التي كانت حذرة، شعرت بالخوف منه: «ليس لدي فكرة عمّا تريد أن تقوله يا بروك».

لكن وجهها توهج احمراراً قبل أن تردف: «أنا أعرف جيرالد منذ سنوات، وقد حضرت جنازة زوجته التي توفيت منذ سنتين تقريباً».

وبدا في عينيها كراهية بالغة له: «فيليب سيرث، فلا تغلط».

- هل سبق وفكرت مرة في أن فيليب قد لا يحب هذا العمل؟ فكّري في الأمر، يا فرانسيس. وأظننا سنعود في أواخر النهار.

* * *

هبط بروك بالهيلوكوبتر في فناء منزل وايبورن الفسيح، فقال فيليب مستنكراً: «ما كان لك أن تفعل ذلك لأن السيد لوغان لن يعجبه هذا. فصوت المحرك مزعج!».

ولأن بروك هو بروك، فقد تجاهله وأجاب بخشونة: «دعنا نوقظه بذلك».

كانت أماندا في انتظارهما وراحت تلوّح لهما من الشرفة الأرضية. لكن عينيها الزرقاوين اللامعتين كانتا مسمّرتين على بروك.

لم تستطع أن تبعد بصرها عنه وهي تفكر في سحر مشيته الجذابة. مشى فيليب خلفه فبدا انحناء كتفيه أقوى من المعتاد بالمقارنة مع رأس ابن عمته الشامخ، ورشاقته. سرّها حضور فيليب معه، إذ سيجلس مع شيللي فتبقى هي حرة في أن تركز اهتمامها على بروك الذي بدا بالغ الروعة.

عندما وصل الشابان إليها، مدّت أماندا ذراعيها تطوّق بهما عنق بروك وكأنهما لطالما كانا صديقين حميمين.

- مرحباً بعودتك يا بروك. أنا سعيدة جداً بزيارتك لنا.

وألقت على فيليب نظرة جانبية: «كيف الحال يا فيليب؟».

يبدو فيليب وكأنه يحمل أثقال العالم على كتفيه. يا إلهي، كم هو مثير للسأم! إنه يبدو مكتئباً دوماً.

- الأحوال سيئة، صحة الجد تتراجع بسرعة.

- آسفة جداً.

حاولت أن تبدو متعاطفة فيما كانت تفكر في أنه كلما أسرع بالموت كلما كان ذلك أفضل.

سألها بروك: «أين شيللي؟».

نظر من فوق كتفه إلى مدخل المنزل، الذي لم يبد بارداً منعشاً بل كئيباً.

قالت أماندا وقد خفّت بهجتها للتعبير الذي بدا على وجه بروك: «ستأتي بعد قليل».

وتابعت وهي تشير إلى مائدة مستطيلة مجهزة بشكل جذاب: «إنها تعد الغداء».

فقال بابتسامة ساخرة: «ربما عليك أن تساعديها، سنجلس هنا. هل سنحصل على شرف إلقاء تحية على أمك وأبيك؟ لم أرهما منذ وقت طويل».

وسار إلى كرسي بينما قالت أماندا كعادتها بمهارة كاذبة: «في الواقع، أبي أخذ أمي إلى «كوميرا كروسينغ».

كان أبوها يعاني من الإدمان على الشراب... وهو سيموت حتماً من تشمّع الكبد، فيما ستموت أمها من اليأس الذي يمنعها من أن تقابل أحداً.

- أمي لديها موعد مع الدكتورة سارة، سيبيتان الليلة في الفندق.

- ربما نراهما في المرة التالية.

شعر غريزياً بأنها لم تقل الحقيقة.

وفاحت رائحة عطرة أشبه بأريج براعم البرتقال، فالتفت متوقعاً أن يرى شيللي.

حاولت أن تكبح حماستها وهي تقول: «آسفة لأنني لم أكن في استقبالكما».

ومنحت الشابين ابتسامة مشرقة محايدة، محاولة أن تخفي انجذابها إلى بروك... فهي لا تريد أن تُحدث مشكلة، لا سيّما الآن وجدّه يحتضر، والاستياء يسود بينهم في «مولغاري».

- سمعت صوت الهيلوكوبتر.

فقال فيليب متذمراً وهو يضع يده على ذراعها بحركة تملك: «آسف، لقد قلت لبروك ألاّ يهبط هناك».

وصمت لحظة ثم تابع: «الحمد لله لأن والديك غير موجودين».

فقالت شيللي متجنبة تكرار الكذبة: «إنها، في الواقع، فكرة حسنة. فمن الحماقة الهبوط على مسافة بعيدة، إذ سيكون أمامكما جولة كبيرة في الحقول للوصول إلى البيت، يا فيليب. لدينا مجال واسع لذلك».

وأشارت إلى المنطقة المكشوفة البالغة الإتساع أمام المنزل حيث تنتشر أشجار المشمش والنخيل والأشجار الصمغية الزرقاء التي يمكنها احتمال الجفاف والحرارة. كان من الصعب أن تتخيّل أمها وقد كرّست نفسها للاهتمام بمساحات كبيرة من الحدائق وحقول الخضار أثناء مواسم الجفاف.

قال بروك هو ينظر مباشرة في عيني شيللي فيسمّرها مكانها: «لم نشأ أن نزعجك بإعداد غداء لنا».

الأمور تتسارع مع هذه الفتاة، كما خطر له وقد تملكه القلق فجأة. إنه يشعر برغبة عارمة في معانقتها مرة أخرى. إن تأثير شيللي فيه أصبح أعمق مما يستطيع أن يسمح به. لقد عوّد نفسه منذ وقت طويل على أن يكتفي بنفسه، لكنه يجد فتاة البراري الصغيرة هذه خلاّبة وكأنه وجد زهرة برية في شق صخرة.

كانت تلبس قميصاً وردياً، بأزرار لؤلؤية صغيرة، فوق بنطلونها الجينز. وإذا ظن أحدهم أن على حمراء الشعر ألاّ تلبس اللون الوردي فعليه أن يتراجع عن فكرته هذه، أو لعل جمال بشرة شيللي غيّر القاعدة.

- لا إزعاج في ذلك على الإطلاق، كل شيء جاهز.

بدت شيللي مشرقة ودودة، بالرغم من المشاعر العنيفة التي اكتسحتها. مواجهة بروك مرة أخرى قضت على توازنها وثقتها بنفسها. سألها: «هل بإمكاني أن أساعد؟».

وتساءل غاضباً عمّا جعله يحضر فيليب معه؟ ... إلا إذا فعل ذلك لحمايتها ... من نفسه.

فهو يعلم أنه ليس من الرجال العديمي الضرر. وثمة سيل جارف في داخله يجعل حياة امرأة غير سهلة، فكيف بفتاة بريئة مثل شيللي؟

ابتعد فيليب عن الدرابزين وقال لبروك بلهفة: «سأفعل أنا. ابقَ أنت هنا وتحدث مع أماندا».

- ثمة وقت طويل لذلك.

واستلم بروك زمام الأمر بهدوء، فوجّه شيللي نحو الردهة وهو يتابع مخاطباً فيليب: «لقد جئت إلى هنا لأتحدث عن طريقة عمل «مغامرات البراري». هل نسيت؟ من يعلم؟ قد أقرّر أن أدير عملاً كهذا، أنا أيضاً».

شعرت أماندا بجرح في كرامتها، لكنها قررت أن تلحق بهما لولا أن فيليب طلب شراباً في تلك اللحظة بالذات. وكان قد رأى إبريقاً زجاجياً من عصير الليمون الممتاز الذي تحضّره شيللي وتضع فيه أوراق النعناع.

سأل أماندا في محاولة منه أن يكون اجتماعياً رغم أنه لا يحبها أبداً: «حسناً، يا أماندا، كيف حالك منذ رأيتك آخر مرة؟».

جلس على كرسي من الخيزران، ألا يمكنه أن يتفوق على بروك؟ فبروك لا يتبع القواعد، بل إنه لا يعرفها. كانت هذه صفات جده.

في المطبخ، خفف إشراق بروك وجاذبيته من كآبة المكان. راح ينظر إلى شيللي وهي تنتقل في أنحاء المكان. لم يبد عليها أي خجل أو ارتباك تحت نظراته.

لكنه عاد ولاحظ أن يدها ترتجف قليلاً. كانت في أعماقها تتحداه ما أعجبه. كانت تتحرك بسرعة ورشاقة لتنهي العمل الذي بين يديها.

- كان هذا عذراً، أليس كذلك؟ لم تحضر إلى هنا لتتعرف إلى مشروعي السياحي.

فهز رأسه: «بل أود ذلك طبعاً. إنني احترم الأشخاص الواسعي الحيلة الذين يعرفون كيف يقومون بأعمال ناجحة».

- ولكن ليس في نيتك على الإطلاق أن تفعل شيئاً كهذا.

ابتعد عن أشعة الشمس المتدفقة من النافذة: «لن يكون لديّ وقت، فإدارة إمبراطورية كينغزلي ستتطلب كل وقتي».

- هل تقرر كل شيء؟

- ماذا تعنين؟

- هل أخبرك جدك بشيء إيجابي؟

وفي لهفتها اقتربت منه حتى كادا يتلامسان.

- هذا ليس من شأنك، يا آنسة شيللي.

احمر وجهها أمام نظراته اللامعة: «أنا آسفة».

وأفلتت خصلة طويلة من شعرها الجميل الذي رفعته تستحثه على أن يمسكها ويضعها خلف أذنها. ورغم محاولاتها كلها للاحتفاظ بالهدوء والابتعاد عنه، أدرك أن الإنجذاب بينهما لن يتطلب سوى وقت قصير جداً ليشتعل. لمسة يده، التي بدت سمراء بجانب بشرتها البيضاء، خدّرتها. كان احتكاكاً بسيطاً للغاية إنما سرعان ما تحول إلى كهرباء.

وفجأة، قالت تتحداه والشرر يتطاير من عينيها الخضراوين: «تذكر عهودك».

- فليذهب المستحيل بقربك، إلى الجحيم.

شخر وهو يتهالك جالساً في محاولة لكبح مشاعر اكتسحته.

- أراك رجلاً يعشق النساء.

- لقد أحببت أمي بكل تأكيد.

- أعرف هذا، يا بروك.

وابتعدت عنه.

- في الواقع، أنا لا أثق بجدي، يا شيللي. إنه شيطان، مخادع ومعذّب. إنه شخص يعيش في عالم من صنعه. الأمر الوحيد الذي يمكنني أن أصدقه هو أنه لا يريد لعالمه هذا أن يتدمّر.

- هذا لا يوضح شيئاً عن فيليب المسكين.

وبدا العطف في عينيها.

- هذا ما أظنه.

وأخذ يتأملها باكتئاب، فعادت تقول: «لقد تعب كثيراً، وعانى الكثير من الإذلال على يدي جده. إنني أعرف معنى أن يستنزف الشخص طاقته لكي يرضي شخصاً آخر».

فقال بحزم: «كفى تمثيلاً وكأن فيليب غالٍ عليك».

- ماذا تعني يا بروك؟ الكل سيشعر بالأسف من أجله.

- لكن ليس أنا، يا شيللي.

فسألته بحيرة بالغة: «لماذا أحضرته معك إذن؟ أعلم أنني اقترحت ذلك عليك، لكنني لم أكن أظن أنك ستفعل».

عندئذ، نظر إليها بعينين ضيقتين: «هل أنت مسرورة أم خائبة الأمل؟ في الواقع، لم أطلب منه ذلك حتى آخر لحظة. لكن الخطة هي أن أبقيه تحت نظري».

فأجفلت: «الخطة. لا بدّ أن لديك خطة. أنت، إلى حد ما، متسلّط كجدك».

فقال وقد التهبت عيناه: «لا تقولي هذا، ولو مزاحاً. لمعلوماتك الخاصة، نادراً ما أقوم بأيّ عمل من دون خطة مسبقة، فلا تدينيني».

- أنا إلى جانبك ولن أدينك أبداً. على الأقل، هذا ما أظنه، رغم أنك لا تبدو ودوداً اليوم. لا أحب أن تتضرر أو تسبب أيّ ضرر، يا بروك. وهذا ما أراك قادراً عليه، فالمعاملة التي تلقيتها، أنت وأمك، قد تدفعك إلى ذلك. كما أن فيليب ليس المشكلة بل تأثير أمه عليه.

فتأوه ساخراً: «أخبريني شيئاً لا أعرفه».

- عليَّ أن أغيّرك بعض الشيء.
- لماذا؟
- لأنك لاذع السخرية إلى حد كبير.
- وهل هذا هو سبب تفضيلك فيليب؟
فقالت وهي تنتقي كلماتها بعناية: «معرفة فيليب ليس فيها أي خطر على الأقل».
فضحك: «من واجبي أن أخبرك أنك لا تعرفين فيليب جيداً كما تظنين. في طبيعته هاجس مستحوذ عليه. ولكن انتبهي إلى أن هذا ليس غيرة مني. ولا تنسي أنك استمتعت جداً بعناقي».
قال الجملة الأخيرة بغطرسة، فكادت تقفز مبتعدة: «أنت واثق من نفسك جداً أليس كذلك؟».
- يمكنك أن تقولي هذا. لقد تعلمت الكثير عن النساء.
- لم يذهب هذا هباءً، لكنني لن أحرق أصابعي.
- النساء الفاتنات يتملكهن السأم بسرعة ويحتجن إلى ما يلهيهن.
- أتريد أن تقول إنك ساعدتهن في ذلك؟
فقال ساخراً: «تماماً، أردت أن أخرج كل ما في داخلي».
- وما زلت لم تُشف بعد؟
- لا أتوقع من بنت الجيران أن تثير مشاعري.
اكتسحتها موجة حارة: «كم يدوم عبثك بالضبط؟».
- حسناً، أنا لم أنسك بعد، فلا تقلقي.
قالت: «أراهن أن نساء كثيرات أردن أن يقتلنك».
- هذا ما لا أعرفه.
- هل كدت تقع في حب أي منهن؟
وتجرأت على أن تلقي عليه نظرة.
- لماذا تريدين أن تعلمي؟
تشابكت أعينهما، فردّت: «من باب الفضول فقط».

ضحك وهو يتناول تفاحة ويقضمها قبل أن يقول: «الحب ليس لي يا طفلتي».
- هذا سيء جداً.
وتناولت طبقاً كبيراً يحتوي على مجموعة ملونة من الخضار: بازلاء خضراء، وفليفلة حمراء وبصل وخس وزيتون أخضر وأسود، ثم سكبت التوابل عليها.
- هذا رائع.
- أي نوع أعجبك أكثر؟
فأمسك بمعصمها: «أنت تتحولين إلى فتاة لعوب أمام عيني».
- هذا غير صحيح، بل أنت الذي تحب المرأة المتحدية. لطالما كنت كذلك، إنني أتذكرك أيام غطرستك عندما مثلت دوراً جعل كل الفتيات مغرمات بك.
- كلام فارغ، هذا اتهام غير صحيح.
فتابعت وكأنه لم يقل شيئاً: «يا للجاذبية الهائلة . . . إنها فعّالة على الدوام».
- ليس بالنسبة إليك.
وأخذ يعبث بأصابعها فيما ردّت: «أنا عاقلة جداً، دع هذا».
وسحبت يدها من يده وقد تملكها شعور غريب.
- هل تدعين شعرك مسترسلاً ولو للحظات؟
ووقف يحدّق إليها، واضعاً يديه على وركيه. بدا رائعاً مزهواً، إنه أجمل رجل رأته. تجاهلت سؤاله وقالت: «يمكنك أن تستغل طاقتك وتحمل الطعام إلى المائدة».
- نعم يا سيدتي. هل تريدينني أن آخذ الطبقين؟
وأشار إلى شرائح الدجاج السميكة، فسألت: «أتظن أن بإمكانك حمل الاثنين؟».
فقال هازلاً: «أتعلمين أن أمي لم تكن تعرف الطبخ؟ لم تضطر إلى

www.elromancia.com

ذلك قط. فجدي كان يستخدم دوماً مديرة منزل. لطالما كان لدينا خدم، يولا كانت موجودة دوماً».

فقالت بهدوء: «نعم أعلم هذا، كنت أصادفها دائماً في المدينة. كانت حزينة للغاية عندما رحلتما، أنت وأمك. لا بد أنها ابتهجت لعودتك؟».

- لكنها حزنت للغاية على أمي.

- طبعاً، فهي تعبدها لكنها لا تحب والدة فيليب.

فقال عابساً: «المرأة ذات الإرادة الحديدية، أظن أنّ علينا أن ندع قصاص فرانسيس لله».

فقالت شيللي بسرعة تهدّئه: «لا بأس. هل تحاول أن تخبرني أنك كنت الطباخ؟».

- هل من الصعب تصديق هذا؟ وانتبهي إلى جوابك.

- بل أعتقد أنك تستطيع أن تفعل ما تريد، يا بروك.

فقال فجأة من دون أن يهتم حتى بكبح المشاعر التي بدت في عينيه: «ماذا لو أخبرتك أنني أريد أن أعانقك في هذه اللحظة؟».

لم تكن نظراته رقيقة بل عنيفة وعميقة بحيث أحرقتها.

لم تجب شيللي على الفور إذ خنقتها المشاعر. وأخيراً قالت: «وأي فائدة في ذلك؟».

- من يعلم؟

كانت أشبه بزهرة، بوردة، بشيء طبيعي جميل. وقال بتوتر: «من الأفضل أن أغلق باب جهنم».

كلما طال مكوثه هنا، فقد سيطرته على نفسه.

- لا أريد ذلك. لا أريدك ألاّ تتحدث إليّ.

كانت المشاعر في صوتها أقوى مما نوت أن تظهر.

- شيللي...

ولكن مهما كان جوابه ما كانت لتسمعه إذ انتبه الاثنان إلى وقع خطوات في الردهة.

إنها أماندا.

وحاولت شيللي جاهدة أن تمحو أثر المشاعر عن وجهها.

- لن أؤذيك أبداً يا شيللي.

وكان صوته عميقاً منخفضاً.

- قد يحدث هذا من دون أن تحاول. ونحن نعلم هذا.

في ضوء النهار المشرق، أخذت تحلم بأنهما عادا إلى تلك الليلة القمراء... متعانقين.

- لن أعبث معك. إيّاك أن تظني ذلك! ثمة صراع بين عقلي وقلبي. أودّ لو أغير حياتي، لكنني لا أستطيع، ولا أريد، فمستقبلي ما زال معلّقاً ولم يُفصل فيه بعد.

سرى بينهما التوتر... وكان من القوة بحيث شعرت شيللي بنفسها عاجزة تماماً... عندئذ ظهرت أماندا عند العتبة ونقّلت نظراتها بينهما، ثم سألت بلهجة ذات معنى: «ما الذي يؤخركما؟ أظنك قلت إن الغداء جاهز، يا شيللي؟».

عادت الطاقة إلى شيللي فجأة، فأجابت بصوت شبه طبيعي: «نعم، باستثناء اللمسات الأخيرة، فأنا لا أنهي السلطات إلا في آخر لحظة. وبما أنك هنا، يا أماندا، فهل لك أن تحضري سلة الخبز؟».

٥ - تجربة حلوة... مرّه

لم تفاجأ شيللي وهي ترى أن أماندا وفيليب نقلا المائدة إلى الأجمة التي فكّرت في أخذ بروك إليها.

وكان فيليب قد أصرّ أن يساعد شيللي على رفع الأطباق بعد انتهاء الطعام، بينما أنهت أماندا كأساً من الشراب مع بروك. لم تكن أماندا لتضيّع فرصة التعرّف إلى بروك بشكل أفضل، فثمة شيء ما في نظرات بروك إلى شيللي أثار انتباهها، لكنها طمأنت نفسها إلى أنّ شيللي صديقة فيليب.

فيليب زوج ممتاز فهو غني ومتزن، وصاحب الحظ الأوفر في أن يرث. أما أمثال بروك فيعرفون كيف يستعبدون المرأة. كما أن هناك ثمة إمكانية أن يدرج ريكس كينغزلي اسم حفيده في وصيته. وأماندا تفضل أن تحلم بحياة الأغنياء الكسول، هذه الحياة التي لطالما اختارتها، وإن لم تكن غنية بالضرورة.

قاد بروك السيارة وجلست شيللي إلى جانبه، بينما جلس فيليب وأماندا في المقعد الخلفي.

لعبت شيللي دور الدليل وراحت تشير إلى الأمكنة المهمة بالنسبة إلى السياح، فيما لم تكف أماندا عن مقاطعتها قائلة إن ثمة أمكنة أفضل يمكن زيارتها. وقالت متذمرة: «الحرارة شديدة هنا. فلماذا لا نذهب إلى مكان منعش، مثل «مالكي غريك»؟ كان علينا أن نحضر ملابس السباحة».

خطر لبروك أن أماندا تبدو أشبه بالآيس كريم. ولكن هل تثير فيه أيّ رغبة؟ كلا، رغم أن عينيها الزرقاوين عكستا رغبتها في أن يكون الجواب

نعم. بدا واضحاً أنها تبحث عن علاقة... لكن أختها هي التي جذبته... حتى من دون أن تحاول ذلك.

كل ساعة من النهار تتميز بلوحة من الالوان الخاصة بها... الصخور، والتلال البعيدة تراوحت ألوانها بين الأحمر الناري والبرتقالي، والقرفي والوردي والأبيض والأصفر والبني والأسود، ألوان اختلفت تماماً عن لون السماء الصافية.

كان الريف في فترة جفاف، فبدت الأرض التي غمرتها الشمس بصلابة الحديد.

قال بروك، وقد قرأ ما يدور في ذهن شيللي: «ما من جفاف يدوم إلى الأبد».

- لم ينزل المطر منذ ما يقارب العامين.

- ادعي الله أن تهب عاصفة رعدية أو إعصار استوائي من الشمال.

فقالت أماندا: «عندئذ، سيحدث عندنا طوفان».

- ربما. ولكن بعد الطوفان، نشهد حياة جديدة. لقد رأيت مناظر رائعة الجمال في السنوات الأخيرة، ولكن شيئاً لم يؤثر في كما أثر عليّ مشهد منطقتنا بعد المطر. فالأزهار البرية تمتد حتى الأفق، من المؤكد أن الفردوس ليس أجمل أو أطيب رائحة من هذه البقعة. كما أنّ المساحات اللا محدودة من حقول الأزهار تبعث النشوة في النفوس.

بعثت كلماته البهجة في أعماق شيللي: «ما أجمل هذا الوصف، يا بروك».

إنه متفهم ويجد السلوى في المناظر الأبدية الروعة. قالت والبهجة في صوتها: «أمضيت أروع الأوقات في رسم الأزهار البرية المختلفة».

فقالت أماندا هازئة: «أليس هذا محزناً؟ أن تمضي أجمل أوقاتك في رسم الأزهار؟ على أيّ حال، لا تدعها تبدأ بالحديث، إذ ستستمر ساعات في وصف الأقحوان، وورود الصحراء ونجم بيت لحم، الخ... وهذا مملّ للغاية بالنسبة إلينا جميعاً».

شعر فيليب بالاستياء البالغ لقولها هذا، وقال بحرارة: «شيللي فنانة ولوحاتها رائعة الجمال. كان من المفروض أن تستغل موهبتها بدلاً من أن تنهك نفسها في إبقاء هذا المركز اللعين مفتوحاً».

نظرت شيللي إليه وقالت بسرعة: «لكنني استمتع بهذا يا فيليب، فقد تعلمت الكثير».

- يمكنك أن تتعلمي أكثر لو سافرت، ورأيت شيئاً من الحياة. أكره فكرة إرهاق نفسك بهذا العمل الشاق.

فقالت أماندا تتحداه: «إذن، ألم يحن الوقت لكي تطلبَ منها أن تتزوجك؟».

فردّ فيليب بجفاء: «شكراً يا أماندا، لكن هذا شأننا الخاص».

عندئذ، قال بروك بهدوء لا يعكس الغضب في عينيه: «لِمَ لم يخطر في بال أي منكما أن شيللي لا تريد ذلك؟».

ردّت أماندا بابتسامة عابثة واسعة: «بل تريد ذلك. أظنها تقول لي ذلك مراراً وتكراراً».

ورغم أنّ شيللي تعرف أختها إلاّ أنها صُدمت، فقالت بحدة: «أرجوك يا أماندا، التزمي بالصدق».

التفتت أماندا إلى فيليب وقالت: «أنظر، يبدو أننا أحرجناها... لا بأس، يا شيللي».

تملّك شيللي الغضب وهي تتساءل إلى أي حد ستصل أختها، فلمست ذراع بروك وقالت: «يبدو أن هذه الجولة الممتعة قد انتهت. يمكننا أن نتسلى قليلاً بجانب «الخليج الصغير».

- هذا حسن.

أوقف بروك السيارة على أرض مرتفعة تحت مجموعة أشجار أخذت تُسقط براعم أزهار بيضاء ووردية على السيارة.

الجداول، الآبار، البحيرات المالحة التي تتقاطع عند القناة الكبيرة ومراكز الماشية الكبرى، تختلف اختلافاً كبيراً عن تلك السهول الفسيحة

الجافة.

كانت الأعشاب تشكّل واحة تغطيها أشجار الصمغ ذات الجذوع البيضاء، وأنواع كثيرة من أشجار الصحراء القصيرة المزهرة.

كان «خليج مالكي» بحيرة رائعة باردة للسباحة أثناء الجفاف تتحوّل إلى سيل جارف أثناء فصل الأمطار. بدا الخليج متألقاً بما يحف به من أشجار الأوكاليتوس الصحراوية، بأزهارها الصفراء الشاحبة وبراعمها الفضية، حتى أغصان الأشجار الجافة التي تكسو الأرض بدت جميلة.

ركضت أماندا أمامهم، ممثلة دور «المرأة الفتّاكة» فبدت مثيرة للغاية بقميصها المقفل ولون عينيها الزرقاوين. كانت ساقاها الرشيقتان باديتين من تحت سروالها القصير الأبيض الضيق إلى حد مخجل.

كانت شيللي تظن أن أماندا، بملابسها هذه وعينيها الكبيرتين الزرقاوين وشعرها الأشقر، يمكن أن تسمّر الرجال. لكن بدا لها أن بروك وفيليب غير مهتمين بالنظر إليها. في الواقع، شعرت شيللي بالكآبة وهي تراهما يتبادلان بعض الكلمات اللاذعة، التي تركت فيليب بالغ الاضطراب.

وتبيّن أخيراً أنها كانت على صواب، فقد صاح ما إن وصل إلى جانب شيللي: «أختك هي أكبر مسببة للإزعاج شاء سوء حظي أن أعرفها. إنها لا تهتم بما تقول أو متى تقوله. لقد سبق وضايقتني مراراً».

فقالت شيللي تخفف عنه: «إنها تريد فقط أن تتباهى. على أيّ حال، إنها أختي يا فيليب وأنا أحبها».

فقال باستياء: «وحده الله يعلم لماذا؟».

قالت بحذر وهي تلتفت إلى بروك الذي توجه نحو المياه: «هل كنتما، أنت وبروك، تتناقشان؟».

- من تراه يظن نفسه لكي يوبّخني؟ لقد عاد بعد كل تلك السنوات... وفي الوقت المناسب ليستعيد مكانه في وصية جده... وها هو يطلب مني أن أكفّ عن الضغط عليك. وكأنني أفعل ذلك!

كان عليها أن تستغل هذه الفرصة فقالت: «في الواقع، هذا صحيح، يا فيليب».

بدا عليه الألم وقال: «يا لي من غبي! ألا تعرفين كم يهمني أمرك، يا شيللي؟ أتعلمين ما هي الأشياء التي أريد أن أفعلها لأجلك؟ لقد التزمت الصمت حتى أرى حال جدي، لكن من المؤسف أن أرى أن أماندا على حق. كان عليّ أن أطلب منك الزواج».

شعرت أنها تريد أن تضرب رأسها بجذع شجرة. لقد ساءت الأمور إلى حد يشعرها بأن من واجبها أن تقول نعم لأسرتها ولفيليب: «نحن صديقان يا فيليب ليس إلاّ، وما تشعر به من عاطفة نحوي هو في ذهنك فقط، فأنا لم أشجعك قط على أن تتحوّل صداقتنا إلى حب».

- أبوك وأمك موافقان عليّ، وأنت سمعت ما قالته أماندا. تعرفين جيداً أنني على استعداد للزواج منك في دقيقة.

- هذه الدقيقة هي مدة دوام زواجنا فأنا لا أحبك يا فيليب. أنا آسفة، فأنا أكنّ لك الكثير من المودّة ولا أريد أن أؤلمك.

- بإمكانك أن تحبيني لو أمضينا مزيداً من الوقت معاً.

- ألا يمكنك أن تقبل الرفض أبداً؟

رأت بروك يبتعد عن أماندا التي كانت ترشقه بالماء مداعبة. اتجه نحوهما بينما كان فيليب ينظر إليه ويجيبها: «أبداً! أنت لي أنا. لقد عرفت هذا منذ وقت طويل جداً. عليك أن تقطعي صلتك بأسرتك. لكننا سنرعاهم طبعاً، لأنني أعلم أنك تريدين ذلك».

وفجأة، شعرت برغبة في الانفجار بالبكاء. ما أسوأ أن يشعر المرء أنه في مأزق حرج. هز فيليب رأسه بحزن: «أنا أحبك، ولكن لم تسنح لنا فرصة لكي نتصارح، وها هوذا بروك عاد ليعقّد الأمور».

فقالت بهدوء بالغ: «أنت حتى لا تعرفني، يا فيليب».

فاعتصر يدها: «بل أظنني أعرفك. حذار من بروك وحسب، لأنه ليس مثلي، فهو سيخطفك ثم يلقيك جانباً. إنني أرى عينيه عليك، تباً

له!».

وعندما اقترب بروك منهما. ابتعد فيليب فجأة، وانحنى يلتقط بعض الحصى ليقذفها إلى المياه.

قال بروك بلهجة عفوية على عكس نظرة عينيه: «هل كل شيء على ما يرام؟».

- لا بأس... ولكن عودتك أو موت جدك الوشيك أو الأمرين معاً جعلا فيليب يسرّع الأمور.

بدت السخرية على وجهه الوسيم: «أفهم من هذا أنه قرر أنك زوجة صالحة».

فقالت بجفاء: «لا أريد لما أقوله أن ينتشر في الأنحاء، لكنني قد لا أكون زوجة صالحة لأحد».

جرّها من يدها إلى ظل شجرة وقال بغضب: «معظم النساء يعتبرن فيليب صيداً ممتازاً، فماذا تنتظرين يا آنسة لوغان؟ رجلاً يخطف أنفاسك؟».

- الجواب هو (نعم).

- الكثير من علاقات الحب المحمومة تنتهي بشكل سيء.

- أعلم هذا.

كان عليها أن تفعل شيئاً ما، فما هو؟ ولم تستطع أن تتحرك.

- لكنك تريدين العواطف المحمومة، أليس كذلك؟

- إلى متى سيطول إغواؤك لي؟

- طالما الرغبة موجودة.

وعانقها فقالت: «عليك أن تكف عن هذا يا بروك!».

- لماذا؟ لا أرى لديك مانعاً.

- بل لديّ مانع.

شعرت بالوهن والتراخي بحيث ظنّت أنها لن تتمكن من الوقوف أكثر.

- أتظنين أن فيليب سيلتفت ويرانا؟

- فيليب ليس من يزعجني بل أنت. أنت تعرف كيف تغوي المرأة.

- أنت جميلة.

وعاد يشدّها إليه.

- وأنت لست كذلك! إنك شيطان.

ضحك وأحنى رأسه سائلاً: «أي شيطان جعلني أحضر فيليب معي؟ وأي شيطان جعلك تحضرين أختك؟».

- لأمنعك من هذا.

كانت تشعر بحرارة قربه وبدمها يغلي في عروقها.

- إنك تقول شيئاً ثم تفعل العكس.

- عليك ألاّ تبتسمي لي بهذا الشكل، عليك ألاّ تنطقي بتلك التعليقات الحادة القصيرة، عليك ألاّ تتعطري كالوردة. وما كان ينبغي أن تتمتعي بمثل هذه البشرة الرائعة الجمال.

- حذار يا بروك، إنهما قادمان.

- وصولهما سيستغرق وقتاً، وأثناء ذلك سأضمك إليّ. إنني أشعر بقلبك يخفق تحت هذا الزر الوردي الصغير.

- هذا يمنحك بهجة كبرى، أليس كذلك؟

لم تكن تعرف ما يحدث لها وهي ترى حماستها هذه.

تمتم وقد آمن للحظة بالسعادة البسيطة: «أليس كذلك؟».

قالت وهي ترتجف من دون وعي: «إنني مضطربة للغاية».

- هذا غريب، هل أنت خائفة إلى هذا الحد من أن يراك فيليب؟

- أنت شيطان!

ونظرت إليه فرأته يبتسم.

- عندما أكون معك يا شيللي، كل نواياي الطيبة تتبخر.

- أخبرني الحقيقة يا بروك، ماذا تريد مني؟

- وماذا لو قلت كل شيء؟ ماذا ستفعلين حينذاك؟

أشعلت نظراته النار في كيانها: «لقد عانقتني عندما كنت في السادسة عشرة لأن هذا أشعرك بالبهجة. لكنك لا تتذكر».

- من الغريب أنني أتذكر. أظنني أمضيت السهرة أنظر إليك، كنت ترتدين ثوباً أخضر.

- هذا صحيح.

- وكان مطرزاً من الأمام حتى أسفل الثوب.

تملّكها حنين بالغ: «كان أجمل ثوب ارتديته في حياتي. شعرت وأنا أرتديه أنني مختلفة تماماً، أشبه بأميرة. كان بإمكانك أن تحصل على أي فتاة تختارها، لكنك عانقتني أنا. كان هذا أشبه بحلم».

قال شاعراً بالإحباط وهو يرى أماندا وفيليب يعودان: «أدفع أي شيء لأظفر بعناق كذاك العناق».

ثم صمت لحظة وأردف: «والداك لم يذهبا إلى «كوميرا كروسينغ»، أليس كذلك؟ إنهما في المنزل. إنني معجب بشجاعتك وعزيمتك يا شيللي لكنني أظنك تحاربين في معركة خاسرة، إذ ينقصك رأس المال والموارد إلى حد كبير، فضلاً عن مساعدة الآخرين».

احمر وجهها وأشاحت بوجهها: «إسمع، يا بروك. قد يدهشك قولي، لكنني أستطيع تدبر أمري».

- حتى متى؟ إنني أوافق فيليب الرأي. ستنهكين نفسك وستتخلى عنك أسرتك. قد يظن فيليب أنك زوجة ممتازة، لكنكما ستصبحان كارثة معاً، فسيحطم حياتك، هو وأمه الجهنمية.

- أظنها تفضل قتلي على أن تسمح لي بالزواج من ابنها. كل هذا جنون على أيّ حال...

وحاولت الابتعاد عن جاذبيته القوية، لكنها بقيت مسمّرة.

- إن حالتي النفسية لا تسمح لي بالزواج. كل ما أريده هو أنت وحدك في هذا المكان الهادىء الآمن. الحياة قصيرة جداً ومليئة بالقلوب المحطمة. كلامك عن الانتقام صحيح يا شيللي، فهو يحرق قلبي. بعد أن

ماتت أمي بقيت فترة كالمجنون، كرهت جدي، وكرهت فرانسيس وكرهت نفسي. حينذاك كان الانتقام يحرق قلبي أكثر من الحزن. كراهية الناس ليست أمراً سارّاً، لكنني لست قديساً، مثلك.

- وأنا أيضاً لست قديسة، يا بروك.

- بل أنت كذلك مقارنة بي. عليّ أن أحذرك ففيليب ضعيف الشخصية، ولطالما كان كذلك. لقد أفسدت فرانسيس شخصيته. لكنه يظن أنه إذا بقي ثابتاً صبوراً، فستقعين بين ذراعيه. ربما بدفع بسيط من أسرتك ستذعنين، وأختك متلهفة حتماً إلى إزاحتك من طريقها.

- أماندا تريد فقط أن يكون زواجي ناجحاً.

لم يستطع أن يكبح شخرة ساخرة: «منذ متى تهتم أختك برغباتك؟».

- أرجو ألاّ تستمر في ذلك، يا بروك.

- لا أظنهم سمحوا لك يوماً بأن تنسي.

فقالت وهي تكبح عذابها: «لأنني أنا التي نجوت، المشاعر أقوى من المنطق».

أظلم وجهه غضباً: «لا يمكنني أن أجادلك في هذا، كما أنني لست مناسباً لك. وأنا واثق من أنك توافقينني الرأي».

قالت قبل أن تستطيع منع نفسها: «الأمر بسيط للغاية يا بروك، أنت بحاجة إلى امرأة تسبغ عليك حنانها».

فأمسك بكتفيها قائلاً: «يا للصغيرة الحلوة الحمقاء! يمكنني أن أحصل على من أريد من النساء».

رأت الحقيقة في عينيه: «لديك سلطة بالغة على النساء وبعض السلطة علي. لا أنكر هذا. الرجال أمثالك ينتعشون بالتحكم والسيطرة. ولهذا لن أخدع نفسي بأنك تكنّ لي أي اهتمام خاص».

مر بإصبعه على خدها، وقال برقة: «يمكنك أن تنسي هذا، فأنت تملكين قوة. أنا لا أشعر بالمرارة أو الغضب حين أكون معك، فأنت هادئة متزنة ولا تتباهين كثيراً كأختك. لكن لديك جاذبية تفتقر هي

إليها، وأنا واثق من أنها تدرك ذلك أحياناً. عندما أغادر هذا المكان عليّ أن أذهب إلى البيت حيث حقد فرانسيس لا يزال في عينيّ جدي».

كانا متقاربين يقفان وجهاً لوجه: «قريباً ينتهي هذا يا بروك؛ عندئذ، ستتحرر».

- إلاّ من ذكرى أمي، لأنها ستكون معي دوماً. أما بالنسبة إلى أبي المغامر، وحده الله يعلم ما حدث له. وإلى أين ذهب، وماذا فعل. كيف يختفي رجل بهذه البساطة؟ منذ عامين وضعت الكثير من الإعلانات في الصحف محاولاً تتبع آثاره... من دون فائدة، وكأنه اختفى عن وجه الأرض.

- لعله لا يريد أن يظهر. لعله محا ذكرى زوجته وطفله من ذهنه.

- يا إلهي، لا بدّ أنه لم يشأ أن يتحمّل مسؤوليتنا، ما حطم قلب أمي ونفسيتها وأشعرها بمذلة بالغة.

- لديك أسباب تجعلك غاضباً يا بروك. لقد غضبت أنا أيضاً وشعرت أن والديّ ماتا هما أيضاً بعد موت سين. لجأ أبي إلى الكحول ... ستسمع عن ذلك إن لم تكن قد سمعت به حتى الآن... وأمي لجأت إلى غرفتها. ولكن لديك أنت ما تتمسك به فأمك كانت تؤمن بك. ولعلها كانت واثقة من أن أباها سيحاول أن يخفف من ذنبه فيقدم لك ما يبدو أنك الوحيد القادر على إدارته وهو ... «مولغاري». لا بد أنها كانت تعلم أنك أنت، في النهاية، من سيستلم زمام الأمور.

قال وهو يسمّر نظراته عليها: «هذا مخيف. إنها كلمات أمي بالضبط. لماذا تظنينني أنتظر؟ لماذا تظنينني عدت إلى بيت ما زال ساحة معركة؟ لهذه الأرض معنى كبير لدي. إن «مولغاري» بيتي!».

- لكن هذا فظيع بالنسبة إلى فيليب. لا بد أنه سيشعر بالإحباط لأنه لن يكون أبداً الحفيد الذي يريده كينغزلي.

فقال وهو يحوّل نظراته إلى البحيرة: «يا إلهي، تظنين أني سأنجح. سيستطيع فيليب أن يعمل بشكل أفضل عند اختلاف البيئة، بعيداً عن أمه

الباردة المستبدة، إنني أنوي طردها حالما أتمكن من ذلك».

- وهل ستطرد فيليب أيضاً؟

- أتريدين أن تنقذيه أيضاً؟

- إن ضعفه يثير عطفي.

فقال بازدراء: «حسناً، سأفكر قليلاً في هذا الأمر، أيتها المرأة العاطفية الحنون الحلوة الرائعة».

ولم يكن الإعجاب في صوته بل الحزم فنظرت إليه بعنف: «لا أريدك أن تخدعني يا بروك».

- هذا ما أحبه فيك. ستتحدث في هذا لاحقاً فقد اقتربا. للأسف أنّ فيليب لم يقع في حب أختك. ربما كانت لتغيرت شخصيته تماماً، لأن أماندا مرحة للغاية، فهو يبدو وكأنه يحمل أعباء العالم على كتفيه.

- فليكن لديك قلب، يا بروك. لا بد أنه في مكان ما في داخلك.

فرفع يده: «أسكتي يا شيللي وإلا أبكيتني».

- أنت لا تبكي، فلديك من القساوة ما يمنعك من ذلك.

- وما أدراك؟

- لدي بصيرة. لماذا... لماذا أخذت أماندا تركض في هذا الجوّ الحار؟

نظر إلى حيث تنظر. كانت أماندا تركض بشكل متعرج حول الصخور المغطاة بالأزهار: «لأنها مرحة للغاية».

فقالت شيللي بنظرة قلقة: «لا، يبدو أن فيليب يختبئ».

انتبه بروك فجأة إلى حركة بين الأشجار: «إنه حيوان الكنغارو يركض خلفهما. لعلها أنثى تحمل جروها في كيس بطنها».

- يا إلهي!

وفي لهفتها لحماية أختها، انطلقت شيللي راكضة بسرعة أكبر من سرعة أماندا. الكنغارو الأنثى أصغر حجماً من الذكر، لكنها تحمي صغارها بشكل خطر. ولا بد أن هذه لجأت إلى البحيرة لتشرب وتحصل على

غفوة.

لماذا تصرخ أماندا؟ يبدو أنها خائفة. كان أبوهما يوصيهما دوماً بألاّ تظهرا الخوف أمام الحيوانات البرية. كان بروك يفكر بالأمر نفسه عندما اندفعت شيللي راكضة فاندفع خلفها لكن الكنغارو تابعت اللحاق بهدفها الأول، أماندا التي كان صراخها الثاقب يزيد من ثورة الحيوان البري.

أخيراً وصلت شيللي إلى أختها وقلبها ينتفض وشعرها يتطاير مع الريح فجعلتها تنبطح على الرمال وارتمت فوقها، طالبة منها أن تبقى جامدة تماماً. قد يفقد الحيوان اهتمامه إذا تظاهرتا بأنهما ميتتان... لكن أماندا لم تستطع أن تصمت.

آخر ما شعرت به شيللي هو أن رجلاً غطاها بجسده. ورغم أنها أوشكت أن تنسحق تحت ثقله إلا أنها أدركت أنه بروك. طوّقها بذراعيه مشكلاً بذلك حجاباً حامياً لها. كانتا آمنتين، لكنه لم يكن كذلك.

صرخ بأماندا: «إخرسي».

أخذ نفساً عميقاً، كانت الكنغارو ثائرة ومن الاندفاع بحيث لم تستطع التوقف، فانقضت عليه بدفعة عنيفة.

كانت أماندا لا تزال تصدر صرخات رعب خافتة، وشيللي لم تصدر أي صوت، بل ضغطت على أختها بشدة وقد توترت عضلاتها وتبلل جسمها بالعرق. المتضرر الوحيد هو بروك. يمكن للكنغارو الذكر أن يمزق الرجل إلى أشلاء، أما الأنثى الهائجة فيمكنها أن تحدث كثيراً من الأذى بمخالبها.

كان بروك يشعر بألم كوخز المسامير. أخذ يشتم نفسه لاهتمامه بإنقاذ المرأتين. أين هو فيليب بحق الجحيم؟ أخذ الكنغارو يعتصره بشدة بقدميه الأماميتين، لكن عندما لم يجد أي تجاوب قرر أن يرتاح فاندفع عائداً من حيث جاء، مخلّفاً وراءه سحابة من الغبار وأوراق الأشجار.

استجمع بروك قواه ووقف. كانت الكنغارو قد جرحت ذراعه اليمنى، كما أدرك وهو يمد يده إلى ظهره أن الدم يسيل منه. انحنى وشد

شيللي يوقفها على قدميها، فسألته: «هل أنت بخير؟».

كان وجهها مبللاً بالعرق، لكن اهتمامها كله موجه إليه.

- أنا بخير شكراً.

وعندما رأى الفزع يتملكها لرؤية الدم، قال: «لم أفعل شيئاً غير عادي، فأنا لم أشأ أن يصيبكما أنت وأماندا أي مكروه».

وانحنى يجذب أماندا التي نهضت وهي تلهث من الحرارة وتسب وتشتم.

- ماذا كنتما تحاولان أن تفعلا؟ أن تسحقاني؟ أنظرا إلى ركبتي.

وأخذت تبكي وكأنها راقصة باليه على وشك الصعود إلى خشبة المسرح.

فقال بروك من دون أن يحاول إخفاء اشمئزازه: «ماذا كنت تفضّلين؟ أن تهجم عليك الكنغارو وتدقّك وتسحقك بقدميها؟».

نظرت أماندا إليه، ثم هزت رأسها: «لماذا أرادت الكنغارو أن تهاجمني؟ لم أفعل شيئاً. يا لها من غبية!».

- شيء ما في طريقة ركضك وفي صراخك أنذرها بالخطر، وكانت تحمل صغارها في جيبها.

شرح لها هذا باختصار وهو يفكر في أنانية هذه الشابة فهي لم تتفوه بكلمة شكر واحدة لأختها التي هرعت لمساعدتها. لولا وجوده لكان لحم شيللي هو الذي تمزق.

قالت شيللي وهي تقترب منه تتفحص الجرح الدامي على ذراعه: «أنت مصاب يا بروك».

ثمة المزيد من الجروح على ظهره، كما أدركت من الدم على قميصه.

- آسفة جداً لحدوث هذا، كلنا نعلم أن الكنغارو يمكن أن يكون عدوانياً. علينا أن نعود إلى البيت لأتمكن من تنظيف الجرح، لا بد أنه مؤلم؟

فقال بجمود: «إنه يلسع فقط، أنا آسف لأني اضطررت أن أسحقك،

ما من طريقة أخرى».

والتفت حوله وقال بعينين ضيقتين: «أين فيليب؟ فوق شجرة؟ هل ما زلت تتساءلين عن سبب حبي البالغ له؟».

وإذا بفيليب الذي كان يجثم خلف صخرة كبيرة، ينهض ويتوجه إليهم وقد بدا عليه الارتياح البالغ. اندفع إلى شيللي: «الحمد لله لأنك بخير».

فقالت أماندا بعنف: «وأنا أيضاً بخير، وشكراً لسؤالك عني. لقد تميّزت اليوم، يا فيليب. أنقذت نفسك قبل النساء».

فاحمر وجه فيليب: «ماذا توقعت مني أن أفعل؟ حدث الأمر بسرعة، وكان بروك أقرب إليك».

- لا أصدق ما أسمعه!

ومدت يدها بانفعال بالغ وقد شحب وجهها، ودفعت فيليب بتهوّر: «أنت جبان وهذه هي مشكلتك».

ولم يكن فيليب مستعداً فترنّح إلى الخلف.

تجاهلتهما شيللي وقالت لبروك: «أنا آسفة حقاً يا بروك، لكننا لا نستطيع الوقوف هنا لنتكلم. هل سبق وأخذت إبرة ضد «التيتانوس» مؤخراً؟».

فضحك: «لست في خطر يا شيللي، فلا تنظري إليّ بهذا القلق. هذه الإصابة تبدو أسوأ مما هي في الواقع. ولكي أريح ضميرك، أعلمك بأنني أخذت إبرة منذ سبعة أو ثمانية أشهر بعد أن هاجمني كلب أحد الحراس».

فقالت أماندا وهي تنظر إلى خدوش ركبتيها وكأنها تهدد حياتها: «أشعر بغثيان، لطالما جئت إلى هذا المكان ولم يحدث لي شيء كهذا».

- أنت محظوظة إذن. عندما تصادفين حيواناً برياً يبدو عدوانياً، قفي مكانك جامدة تماماً وحاولي ألاّ تظهري خوفاً ولا تصرخي أبداً. أنت تعلمين هذا حتماً.

نظرت إليه بمزيج من الغنج والندم، ثم أخذت تمرر يديها على جسمها

بشكل مثير، متظاهرة بأنها تنفض التراب عن ثوبها، وقالت: «القول أسهل من الفعل، يا بروك. أنا لست معتادة على الأدغال مثل شيللي. شكراً يا شيللي، لو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه».

لم يسكت فيليب، فلمعت عيناه بالغضب: «هذا حسن وهو يأتي ممن ترك شيللي تتلقى اللوم...».

فقاطعته شيللي: «أرجوك يا فيليب؟ دع هذه المسألة، كلنا تملكنا الخوف».

فقال بروك: «هل هذا هو تفسيرك يا فيليب؟ الخوف تملكك؟».

وكان فيليب مباشراً في جوابه: «كنت أعلم أن بإمكانك أن تواجه الأمر، لقد نشأنا معاً، هل نسيت؟».

فأجاب بروك: «لا عجب إذن».

* * *

كانت الغرفة باردة ومعتمة نوعاً ما. فأضاءت شيللي المصباح ونبضات قلبها تتسارع، حتى أن ساقيها كانتا ترتجفان. إنه تأثير بروك فيها.

قالت له: «من الأفضل أن تخلع قميصك. لقد تمزق، مع الأسف».

كان من الصعب تهدئة مشاعرها في مكان ضيق كهذا فبروك يملأ الغرفة، ومثل هذا المظهر القوي أشعرها بالهيبة.

أخذ يخلع قميصه وهو يقول: «لا تهتمي بأمري، يمكنني أن أقوم بهذا بنفسي».

فاضت الجاذبية في أنحاء الغرفة، تشحن الجو بالكهرباء. لم يكن يعرف ما سيفعل إذا وضعت يدها على لحمه العاري.

تراجعت شيللي قليلاً وهي تعض شفتها: «كما تشاء، سأحضر لك ما يلزم».

وتوجّهت إلى خزانة الإسعاف لتحضر مواد التعقيم والقطن والرباط ومنشفتين، وهي تقول: «هذا يكفي للمهمة».

كان جسده رائعاً... ولم يدهشها هذا. لكن عندما خلع قميصه بدا

جماله الرجولي غاية في الروعة... ما جعلها ترتعش. قربها منه بهذا الشكل بعث في كيانها شعوراً بدائياً غامضاً.

ساعدني يا الله! شعرت بالاحمرار يغزو وجهها، ويفضح مشاعرها فتملكها الذعر. حوّلت وجهها عنه بجهد بالغ واستدارت إلى الحوض تملأه بالماء الدافىء ثم تعقّمه. كل شيء يتحرك ببطء، لكنها كانت من الاضطراب بحيث لم تعي ذلك. إنها عادة سريعة في تحرّكها، ولكن ما من شيء طبيعي بقرب بروك تايسون. وهو يعلم جيداً كم تراه جذاباً.

ساد صمت متوتر للغاية. ولم تستطع أن تحوّل نظراتها عنه وهو يمسح بالمرهم الجرح الطويل في ذراعه.

- ألا يحتاج إلى خياطة؟

فهز رأسه: «تعرّضت لجروح أسوأ، إصاباتي تشفى بسرعة ولا تترك أثراً».

- هذا حسن كما أن كمي القميص الطويلين أنقذاك، لا أظن أنّ بإمكانك معالجة ظهرك بنفسك.

كان عليها أن تتنفس بهدوء تام لئلا تفضح مشاعرها، لكنها رأت الجواب في وجهه المتوتر.

استقرت عيناه على وجهها بعزم وقال: «عالجيه بنفسك إذن».

- لا بأس.

تمالكت أعصابها وبحذر ولطف أخذت تنظف الخدوش الطويلة.

شعرت بالإثارة ترتفع مع مرور الثواني، تمنت لو تدع يديها تلامسان كتفاه العريضتين اللتين تحجبان وجهها وجسمها عنه.

عندما أوشكت على الانتهاء، مد يده وأمسك بمعصمها فشهقت للمفاجأة: «تعالي إليّ».

سرى في كيانها تيار كهربائي مذهل بقوته. كان بروك يدرك جيداً ما يفعله ويتوقع منها التجاوب. هي شيللي لوغان، العذراء البريئة، فتاة أدغال، لم تعرف في حياتها مثل هذه المشاعر العنيفة.

قال وهو يعانقها: «يمكنني أن أقع في حبك يا شيللي».

هزّت رأسها وهي تلحظ الصراع والتمرد العنيف في نفسه، وقالت: «الوقوع في حبك يخلّف نتائج كثيرة. حتى أننا لم نأخذ الأمور شيئاً فشيئاً».

- ربما هذه طبيعتي، وطبيعتك.

وشدّد من احتضانها من دون اهتمام بجروحه. كان الرفق في حركاته يتناقض مع حدة المشاعر في عينيه. وببطء بالغ، فاضت مشاعرها بالشوق...

امتلأت عيناها بالدموع، كما أن التغيير الذي طرأ عليها وتجاوبها معه بمشاعر لم تكن تدري أنها تملكها أصاباها بالدوار.

تراجع لدموعها هذه وقد توتر وجهه: «ما هذا يا شيللي؟».

فقالت متوترة: «أليس لديك شيء آخر تهتم به؟».

- عندما أكون معك أنسى. لا أريد أن أغامر بإيلامك، وأرى أنك تظنينني أفعل هذا.

فحدقت إليه: «أنت أخبرتني أنّ حياتك في حالة اضطراب عنيف وأنك تبحث عمن يخفف عنك ألمك؟».

- ووجدتك؟ أنت لا تظنين أن هذا غزل.

ورفع وجهها وأخذ يحدق إلى عينيها الخضراوين المغرورقتين بالدموع.

- سأبتعد عنك إذا وجدت أنت أن هذا أسهل، لكنني لن أدعك قط تتزوجين فيليب.

صدمتها كلماته وأثارت أعصابها: «أنت ما زلت عنيفاً، يا بروك تايسون. ما كان ينبغي لك أن تحدثني بهذا الشكل».

- نعم، لا ينبغي لي هذا لكن الأمور تحدث.

واستسلم لمشاعره الجارفة، فعانقها قبل أن يقول: «وما أدراك أنني لست جاداً؟».

- محطم قلوب.

أمسكها واضعاً يديه على خصرها. كانت نحيفة للغاية: «أو لعل كل

الأمر هو أنني أهتم بك؟ شيللي الخضراء العينين، بشعرها الناري؟».

- لكن التوقيت سيء؟

- أنت إذن تعلمين ما تمثلينه من مجازفة.

- لا سيّما أنك رجل غير معروف بالتحفظ.

فقال وهو يشدّد من احتضانها: «ستدفعين ثمن ذلك».

- لماذا لم تقع في الحب يوماً يا بروك؟

- لم أكن أسمح لنفسي بذلك.

- لكن الحب لا يأتي حسب الرغبة، إنه يحدث فقط.

فقال بجفاء: «هذه هي المشكلة، فقد يحدث في لحظة، ويمكن أن يحدث مع شخص غير مناسب، وفي وقت غير مناسب. المشاعر المشبوبة قد تدمر الحياة. إنها نعمة من الله، حتى ولو كانت غير دائمة».

- إذن، أنت تعلم معنى أن تشتهي امرأة؟

كانت ابتسامته ملتوية: «لقد رغبت بنساء كثيرات من وقت لآخر، بقدر ما رغبن بي، لكنني، في أعماقي، رجل مهذب. لن أدمّر حياتك، حتى أنني لن آخذ من وقتك إذا كنت سأجعلك متضايقة أو خائفة».

- خائفة؟

أمسك بذقنها وردّ: «هذا مكتوب على وجهك».

- وماذا تقرأ غير ذلك؟

نظر إليها طويلاً متفحصاً: «نوع من الأحلام لم يمسّها العذاب. أنت منجذبة إلي بنفس القوة التي أنا منجذب بها إليك. لقد عرفنا ذلك، لكنك، في الوقت نفسه، تريدين أن تهربي وتخفي رأسك الجميل».

- أنا أقوى من ذلك بكثير، يا بروك.

فقال بشبه ابتسامة: «أظن ذلك. في الواقع، أريد لك الأفضل، وفيليب ليس كذلك حتى لو كانت أسرتك تدفعك إلى ذلك. الميل إلى استغلال المشاعر نزعة جهنمية».

فشرعت تقول: «منذ فقد والداي سين...».

فقاطعها: «وأنت، ألم تفقديه؟».

تاهت ملاعمها مع الذكريات: «لقد فقدت جزءاً من نفسي».

- إنك توأم. لم تفقدي سين حقاً لأنه ما زال حيّاً فيك. أراهن على أنه قريب منك.

ابتلعت ريقها وقد هزتها حساسيته وقالت وفمها يرتجف: «إنه موجود في حياتي. إنني أكبر في العمر، لكنه يبقى إلى الأبد صغيراً... أخي الصغير. لم أرتكب أي خطأ يا بروك. أنا واثقة من ذلك، لكني لا أستطيع أن أتذكر».

قال بعطف بالغ وهو يمسكها من كتفيها اللتين أرغمتا على حمل عبء ثقيل: «ما كنت لتستطيعين فعل أي خطأ لأنك كنت صغيرة... ست سنوات. ماذا عن أماندا؟».

- لا أدري، فأنا لا أتذكر ذلك النهار، كل ما أتذكره هو صراخ عالٍ. وأظن ذلك الصوت سيبقى دوماً معي. كنت أظن أن أبي يكرهني لأنني بقيت حية، لكن لعله لا يستطيع احتمال عذاب النظر إلى وجهي.

كان بروك يعرف بالضبط عما تتحدث. ألم يكن جده يشيح بوجهه على الدوام لئلا يرى عينيه المتألقتين؟ عيني أبيه الهارب؟

- إنه وضع مفزع، يا شيللي. ومع ذلك لعبت دور معيل الأسرة؟

هزت رأسها بعنف: «لا، أبي هو الرئيس. أعرف أن إنتاج مزرعتنا «وايبرن» تراجع، ودخل مشروعي يساعد في سدّ العجز. لكن أبي فقد الإرادة للعمل وحتى للعيش. كان ليتابع الاجتهاد في العمل من أجل سين، لكي يعطيه المزرعة. والآن قد تُعرض «وايبرن» للبيع، ولعل الإسراع في ذلك أفضل».

فعلّق بروك: «إذا أصبح فيليب صهراً لأبيك فسيكون مفيداً في نظره؟».

فاحمر وجهها: «يمكنك أن ترى مبرراتهم، هذا فضلاً عن الأمن والستقرار».

- لكن هذا خطأ، لا أفهم لما ترضخين لاستغلال أسرتك، يا شيللي.

- لو كنت مكاني ورأيت حال أبي وأمي، لقبلت بذلك بسهولة. أنت محق طبعاً، أبواي يختبئان خلف أبواب مغلقة. أبي الذي كان منتصباً معافى، أصبح الآن يسير منحنياً على عصا. هل صدمك هذا؟ وأمي التي خسرت مساندة أبي لها، أقفلت غرفتها على نفسها هاربة من العالم. وهكذا تراني لا أستطيع أن أتركهما.

فقال بخشونة: «ربما سيصبحان أفضل حالاً».

- وهكذا، وقعنا في مأزق يا بروك. نحن الاثنان ترافقنا المآسي.

قال بما يعني القبول أكثر منه التساؤل: «هل نحن متشابهان إلى هذا الحد؟».

* * *

أحضرت له قميصاً أبيض نظيفاً من قمصان أبيها، ملقية بعيداً بقميصه الممزق. وقد عقدت النيّة على أن تشتري له بدلاً منه حالما تذهب إلى مدينة «كوميرا كروسينغ».

ظهرت أماندا بقميص قرمزي فوق بنطلون جينز منقوش بالأزهار، ظناً منها أن الوقت حان لتناول شاي بعد الظهر. فقال فيليب وهو يعلم جيداً أن أماندا بحاجة إلى مزيد من الوقت لكي تجذب ابن عمته بروك: «هذا لطف منك يا أماندا، ولكن علينا أن نعود إلى «مولغاري». لا يمكننا أن نترك الجدّ مدة طويلة».

ومنع بروك نفسه من أن يضيف: «وأمك أيضاً».

لو أن خاله آرون لم يُقتل بتلك الطريقة المأساوية، لاستعادت فرانسيس صفة سيدة «مركز مولغاري»، وهو كل ما يهمها.

لا شيء في العالم يخلق المشاكل كالمال. المال وطلب القوة والنفوذ تدمّر الأسر، وقد دمّرت أسرته هو.

٦ . أنت بريئة

الثراء كان هدف فرانسيس كينغزلي الأول. ولادتها في أسرة مكافحة جعلتها تصر على تحصيل العلوم كسبيل إلى الترقي. وإذ شعر الوالدان بالرهبة إزاء طموح ابنتهما الوحيدة، اتخذا عملين لكي يتمكنا من ارسالها إلى الجامعة.

كانت تنعم بجمال فاتن، وميل إلى الأناقة، لكنها اتجهت إلى دراستها بعناد. . وتخرجت بشهادة في الاقتصاد، وبقيت تبحث عن سليل أسرة غنية. لكن معظم هؤلاء أدركوا هدفها منذ البداية. وحده آرون كينغزلي، ابن الملياردير وملك مزارع المواشي ريكس كينغزلي، والذي نشأ في الأدغال، وقع في الفخ.

وقع آرون كينغزلي في الحب لأول مرة في حياته، فتمرد على والده وتزوج المرأة الشابة التي اختارها. واستغرق إدراكه أنه اقترف غلطة كبرى ستة أشهر فقد كان زواجهما مهزلة.

تلاشت الصدمة وبقيت الصحوة. فحبيبته المشرقة المتعاونة ذات الطبيعة الحسنة والمثيرة تحوّلت تحت أنظاره إلى امرأة مختلفة. امرأة لا تحبه على الإطلاق، وتكره معاشرته، ولا تعجبها نكاته الصغيرة، ولا يهمها مشاكله مع أبيه الذي كان بارداً نحوه.

ربما لو تزوج آرون كينغزلي، الشاب اللائق المهذب فتاة أخرى، لاهتم بحياته أكثر.

وقد حرصت فرانسيس على أن تحمل منذ البداية وذلك لكي تضمن مركزها. فاستمرت في العيش في منزل الرجل البالغ الثراء، منزل والد

زوجها ريكس كينغزلي، الذي كان مستعداً لإبقائها مع صغيره. على أيّ حال، وجدت فرانسيس صعوبة في التعرف إلى الرجال، وهي المنعزلة في «مولغاري» تحت عيني ريكس كينغزلي الشبيهتين بعيني النسر. لم تكن باردة، كما كان يظنها زوجها المسكين، لكنها وببساطة، تزوجته على أساس المصلحة البارد. لم يكن العشيق الذي تريده.

وهكذا بدأت علاقتها بجيرالد ميتلاند الذي استقبلته في المطار بقولها: «جيرالد، عزيزي، كيف حالك؟».

- يسرّني أن أراك مرة أخرى، يا عزيزتي فرانسيس، لقد اشتقت إليك. كيف حال ريكس؟

- صحته تتدهور بسرعة.

وتفضّلت عليه بابتسامة قبل أن تضيف: «لكن ممرضته ممتازة وأنا أعتمد عليها للغاية. إن ريكس يعاني آلاماً فظيعة».

فهز كتفيه وقال متفلسفاً: «حسناً، آسف لسماعي هذا. يمكن للمال أن يشتري كل شيء، لكنه لا يمنع الموت».

- أنا قلقة للغاية، يا جيرالد.

ورفعت فرانسيس عينيها السوداوين إليه وهي تضع يدها على ذراعه: «أظن أنّ ريكس ينوي تغيير وصيته».

فقال مقطباً جبينه: «ربما سيضيف ملحقاً؟».

- لا، أظنه سيسلّم «مولغاري» لبروك.

فقال محتجاً: «كلا بالتأكيد. لطالما قام فيليب بواجباته، وهو مقيم هنا. كما أنه الحفيد الأكبر، وهو ابن ابنه آرون».

- ريكس يرى الأمور، وهو على فراش الموت، بشكل مختلف.

وابتدأت تقوده إلى السيارة التي تنتظرهما: «أظنه أحضرك إلى هنا ليكتب وصية جديدة. ليغيّر كل شيء، حتى بالنسبة إليّ. لا يمكنني احتمال التفكير في ذلك».

- قد لا يحدث هذا يا فرانسيس.

لم يعلم قط ما الذي حدث لكاترين. . . كاترين الحزينة الرائعة الجمال، وابنها البالغ الحيوية والقوة. كانت عواطف ذلك الفتى مشبوبة ما يجعل ابن خاله يبدو باهتاً مملاً.

قالت متوسلة: «يجب أن تدعني أعلم يا جيرالد، فأنت صديقي. أحسن صديق لي في العالم. لا أظنني عرفت الحب والأمان قبل أن أعرفك».

ورغم فطنة جيرالد متيلاند ودهائه، إلاّ أنه صدّقها.

توقع متيلاند أن يرى الرجل العجوز حال وصوله لكن ريكس كينغزلي لم يكن بحالة صحية تسمح له بالكلام. فتناول هو وفرانسيس غداء ممتازاً حضرّته مديرة منزل كينغزلي يولا، التي تخدم الأسرة منذ زمن بعيد.

بعدئذ، أخذته فرانسيس إلى بركة السباحة الممتازة الملحقة بالمنزل، وجلسا على انفراد في البيت المقفل الملحق بالبركة.

* * *

وفي عصر ذلك اليوم، في غرفة نوم ريكس كينغزلي التي تفوح منها رائحة المرض الكريهة، جلس الرجل الصارم المستبد مستنداً إلى الوسائد، وطلب بصوت خشن مثير للأعصاب من جيرالد متيلاند أن يبدأ العمل.

كان ميتلاند قد ذهل وهو يرى التغيير الهائل الذي طرأ على موكله. . . وأدرك من أول نظرة أن الرجل سيموت في غضون ساعات.

التفت جيرالد إليه وسأل: «ماذا تريدني أن أفعل، يا ريكس؟».

- غيّر وصيتي. ولماذا طلبتك بحق الجحيم؟ لكي أسهّل لك وصالك مع فرانسيس؟ أتظنني كنت أحمق بحيث لا أعرف ما يحدث بينكما؟ أبداً يا رجل. أريد أن أقوّم الأمور. أليس كذلك، يا كاترين؟

التفت المحامي، وقد تملكه الذعر، متوقعاً أن يرى شبح إبنة كينغزلي الرائعة الجمال في الظلال.

وصاح كينغزلي به: «يمكنك أن تحضر يولا كشاهدة وليس هذه الممرضة اللعينة. يولا خادمة جيدة وتعرف عملها. إنها تكرهني طبعاً

وتحب كاترين والغلام. كان بإمكاني أن أطردها لكنني أتفهمها. هيا، تحرك يا رجل. هل تظن أن هذا سهل عليّ؟ إنني أتعذب».

فقال المحامي رغم شعوره بكراهية شديدة لهذا الرجل: «أنا آسف، يا ريكس، آسف للغاية».

ملاحظة كينغزلي العنيفة جعلته يدرك الحقيقة. كان أحمق حين سمح لفرانسيس بأن تغويه فهذا جعله عرضة للابتزاز.

حمل جيرالد قلمه وجلس: «لن أكتب اختزالاً يا ريكس، بل كتابة عادية، وعندما أصل إلى المكتب سأطبعها على الآلة الكاتبة وأرسل إليك نسخة على الفور».

صاح كينغزلي به وهو يتشبث بغطاء السرير: «هيا إبدأ بالكتابة!».

وبسرعة، ابتدأ المحامي يكتب: «هذه آخر وصية لريكس بيركيت، أرمل وصاحب «مركز مولغاري»، في ولاية كوينزلاند. . .

* * *

لم تخبر يولا أحداً بما تعرفه. لم يعجبها كيف يتهامس المحامي وفرانسيس، فكل هذا من أجل المال. كانت كاترين خارج الصورة، فهي في قبرها في إيرلندا. وها هوذا ابنها قد عاد الآن يطالب بحقه.

لم تستطع يولا أن تتذكر بالضبط اللحظة التي علمت فيها أن فرانسيس ومحامي الأسرة على علاقة وثيقة. . . كل ما تعرفه هو أن ذلك كان منذ سنوات.

ومنذ ذلك الحين، لم تكن فرانسيس تتردد في التحجج بأي عذر للذهاب إلى العاصمة. وكانت يولا واثقة من أن فرانسيس تعطي عشيقها المحامي موعداً في كل زيارة من هذه الزيارات.

وها هما الآن يتحدثان سراً في آخر الردهة، وقد بدا أن فرانسيس متكدرة للغاية فيما المحامي يحاول أن يواسيها.

أترى وجد كينغزلي العجوز القوة والعدالة الغريزية لكي يغيّر وصيته؟ لا بد أن الأمر كذلك. لكن المحامي لا يملك الحق في أن يطلع فرانسيس

على محتويات الوصية. كانت يولا واثقة من أن هذا هو سبب كدر فرانسيس الذي بدا أشبه بثورة غضب عاجزة.

عليها، إذن، ألاّ تضيع لحظة واحدة.

بروك وفيليب لن يعودا قبل غروب الشمس، وقد عاد بروك إلى الاهتمام بحياة المركز، مظهراً قدرة فائقة على التعامل مع الرجال.

كان المحامي قد طلب منها أن تجد له مغلفاً كبيراً للوصية المكتوبة باليد التي شهدت عليها معه. وقررت يولا بوحي اللحظة ومن دون مزيد من التفكير، أن تخطو أبعد من ذلك.

* * *

عند اليأس، يضطر المرء إلى اتخاذ قرار متهور، وبما أن جيرالد أطلع فرانسيس على محتويات وصية كينغزلي الجديدة، فقد تملّكها الغيظ حتى لم تستطع أن تتكلم مع أحد.

تناول بروك العشاء معهم، وقد بدا وجهه الوسيم ساخراً وعيناه متألقتين وكأنه علم أنه سيكون سيد الأملاك كلها.

- كيف كان نهارك يا جيرالد؟

فتدخلت فرانسيس قائلة: «فلنأمل ألاّ يخيب أملك تماماً، يا بروك».

وابتسمت له بمرارة، فنظر إليها جيرالد محذراً: «كفى مزاحاً، يا فرانسيس. إنه سرّ يا ولدي، ولكنك ستعلم بسرعة. لن يعيش المسكين ريكس كثيراً».

قال بروك من دون تعاطف: «لا بد أن فكرة مواجهة خالقه تزعجه».

كانت الغيرة هي القوة المسيطرة. لقد علمت فرانسيس من عشيقها أن ريكس كينغزلي تركها وابنها في وضع مادي حسن، لكن هل من المفروض عليهما أن يركعا ويقبلا الأرض شاكرين؟ السلطة الحقيقية تسلّمها بروك، الذي يملك مهارات طبيعية أكثر من ابن خاله وقد سبق وأثبت ذلك حتى في هذا الوقت القصير بُعيد عودته إلى «مولغاري». أما ابنها فيليب فقد مرت به الوصية مرور الكرام.

كان هذا لا يُطاق، لقد خسرا الجائزة قبل الموت مباشرة، إلا إذا استطاعت أن تعقد اتفاقاً مع جيرالد بعد أن يموت ريكس كينغزلي. إنها مسألة وقت فقط. في الواقع، إنّ مساعدة الرجل العجوز على الموت بسرعة ومن دون ألم خدمة كبيرة له.

وفي خضم غضبها البالغ، ظنت أن بإمكانها أن تنجز هذا الأمر.

* * *

كانت الساعة السادسة والنصف صباحاً عندما أجابت شيللي على الهاتف. كانت تجلس في المطبخ وحدها بعد أن تناولت فطوراً خفيفاً وهي تتساءل كيف تصارح أباها بالحاجة إلى إجراء بعض الإصلاحات في المنزل. عندما تعالى رنين الهاتف الحاد أجفلت وسقطت الشوكة من يدها على الأرض، وعندما انحنت لتتناولها اصطدم رأسها بالطاولة فتشاءمت. كان المتصل فيليب.

قال من دون تمهيد: «مات الجد. وجدته ممرضته ميتاً منذ ساعة. اضطررت إلى الاتصال بك يا شيللي، ففي مناسبات كهذه يحتاج المرء إلى مساندة أصدقائه. هل يمكنك أن تؤدي لي خدمة كبيرة وتأتي إليّ في «مولغاري»؟ يمكنني أن أحضرك بالهليكوبتر».

أول ما خطر لشيللي هو أن الأمر غير مناسب، وأنها لا تريد أن تذهب. أخذت نفساً عميقاً وقالت: «ولكن ماذا عن الآخرين؟ بروك وأمك؟ إنهما لن يرغبا بوجودي في وقت كهذا. ستراه أمك تطفلاً لا مبرر له».

- ومن يهتم برأيها؟ إنها لا تهتم إلاّ بنفسها. ليس لديك فكرة عما حدث من إثارة في هذه الساعة الأخيرة. يمكن أن يكون بروك هو الوارث، فهو يتصرف بهذا الشكل. أتدركين ما يعنيه هذا بالنسبة إليّ؟ قد يعني الكثير إذا أنت لم تساندينني. أرجوك ألاّ ترفضي.

في النهاية انتصر العطف، رغم أيّ عواقب جانبية غير مرغوب فيها، فعطفها على فيليب قد يفتره بروك على أنه نوع من الخيانة.

ما إن قفز ذلك الجسم الرياضي الطويل على العشب، حتى أدركت أنه بروك. لا أحد يتحرك مثله بدقة وإحكام. وعندما اقترب منها لاحظت شحوب بشرته، وتألق عينيه.

سألته بشيء من التوتر وهي تلاحظ عصبيته الزائدة: «ماذا حدث لفيليب؟».

فسألها بغطرسة: «ألا تريدين أن ترحلي معي؟».

- لا أرجوك يا بروك، لم تكن هذه فكرتي، لقد أصرّ فيليب على أنه يريد صديقاً.

- ما أحلى هذا منك!

ووضع يده على عنقه وكأنه يختنق فقالت ساخطة: «كان كلامه صحيحاً حين قال إن لا أحد يهتم به».

- لا يصعب فهم سبب ذلك. فطوال حياته لم يفعل ابن خالي شيئاً لأجلي، لكنه يريد منك كل ما يمكنه الحصول عليه من عطف ولطف.

غضبه كان سبباً لغضبها، وتوتر الجوّ بينهما: «إذا كنت لا تريدني أن أذهب فلن أفعل».

- أرجوك أن تفعلي، لا نريد أن يتكدر فيليب. ومن أكون أنا لكي أمنعك؟

نظرت إلى وجهه الوسيم: «يمكن أن تكون أكثر تفهماً».

فبادلها النظر بكآبة: «حسناً، أنا لست شخصاً طيباً».

- ليس هناك ما يدعو للغضب، وأرجوك دعنا لا نتشاجر.

- لكنني متشوّق إلى المزيد!

بهرها لمعان عينيه فتنهدت: «سأفعل ما تريده، ففيليب لديه أمه لتمسك بيده مواسية».

ضحك عابساً: «ما عدا أنها تبدو ممزقة. ولهذا السبب أنا هنا، فلأول مرة فيليب هو من يواسي أمه. وبصراحة، لم أظن قط أن لديها مثل هذه المشاعر. لعل دموعها لا تنهمر كالمطر، لكنها تظهر الذهول

والإضطراب بشكل جيد».

- لعلك أخطأت فهمها وكان لديها بعض المشاعر نحو جدك.

- أبداً.

قال هذا ساخراً قبل أن يضيف: «حبيبها هنا، طبعاً. ولعلها تحاول التأثير فيه. لعله نشأ معتقداً أن الكنة عليها أن تحزن».

سألته وقلبها يخفق: «ومن هو حبيبها؟».

نظر إليها ساخراً: «أتعنين أنك لا تعرفين؟».

- أنا لست مؤتمنة على أسرارك أو أسرار أسرتك.

- ماذا؟ رغم اهتمام فيليب العلني بك؟

حوّلت نظراتها محاولة السيطرة على طبعها: «لديّ مشاعر نحوك أنت أيضاً، يا بروك، لو تسمح لي بإظهارها فقط. لكنك متكبّر إلى حدّ لعين. وهكذا، من هو الحبيب؟ هل ينبغي لي أن أعلم؟».

- ربما إذا أخبرتك سيحرج هذا فيليب. إنه محامي الأسرة جيرالد متيلاند، إنهما عشيقان منذ سنوات.

كبحت شيللي شهقتها: «هذا غير صحيح».

- ألا تصدقين؟

- بصراحة، هذا صدمني.

أطلق بروك ضحكة قصيرة: «أنت بريئة على أيّ حال».

- وهذا يكشف أمور كثيرة مفزعة.

أجاب بروك بسخرية قاسية تعني الكثير: «في الواقع، هذا صحيح».

٧ - وهم أم حقيقة؟

وجدت شيللي سكان المنزل أكثر تكدراً مما كانت تتصور، لا سيّما فرانسيس رغم ثقتها البالغة بنفسها. كانت مشوّشة للغاية وكأنها أصبحت شخصاً آخر. أما جيرالد متيلاند فكان يتصرف وكأن موت أهم زبائنه منحه خبرة جديدة في الحياة.

قراءة الوصية كانت صدمة أكبر من الموت نفسه. جلست شيللي بين بروك وفيليب، متمنية لو أنها غير موجودة. لكن أحداً لم يعترض على وجودها حتى فرانسيس.

كان الأمر أشبه بصاعقة انقضت من السماء، فما من وصية جديدة.

لقد مات ريكس كينغزلي قبل أن يوقّع على الوصية. فقد توقفت كتابتها في أسوأ الظروف إذ كان الموكل في حالة صحية متردّية تلقي الشكوك على حالته العقلية.

لكي ينقذ متيلاند الأسرة من مزيد من الكدر، أتلف المستند المخطوط باليد وغير المنجز قانونياً حالما سمع أن موكله مات أثناء الليل. ولم يبق في حوزته سوى الوصية القانونية الأولى التي جلس مستعداً لقراءتها.

كانت مؤرخة بعد أقل من شهر على مغادرة كاترين وابنها «مولغاري»، إثر خصام عنيف مع ريكس كينغزلي.

إذا كان بروك قد اعتقد حقاً أن جده سيعوّضه عما فعله به ووالده، فقد أصيب بخيبة أمل بالغة. لكنه تمالك نفسه وقال مشككاً: «هذا غير ممكن يا جيرالد، ولا تشكك في حالة جدي العقلية فقد كان العلاج خفيفاً حتى النهاية. وممرضته تشهد على ذلك».

فقال له فيليب غاضباً: «ما الذي تقوله، يا بروك؟ لدينا وصية فلماذا لا تصغي إليها؟ كلنا نعلم أن الجد لم يحرمك كما أني لست ذلك النغل الذي أبقيك محروماً، فأنت حفيد مثلي تماماً».

التفت بروك إليه: «أنا لست مثلك، ولديّ شكوك خطيرة بالنسبة لما يقوله متيلاند».

انتفخت وجنتا المحامي غضباً: «لم يسبق أن شكّك أحد في أخلاقي المهنية. إن هدفي هو خدمة مصالح موكلي. وأظن أنَّ بإمكاني أن أعلن صادقاً أن شركتي لها اعتبار بالغ».

فردّ عليه بروك بحدة: «بنظركم أنتم، بأي حق تتلف تلك الوثيقة؟».

التمعت عينا المحامي غضباً: «كان قراري لمصلحة الأسرة، لن أحيد عن قراري هذا. أعتقد أن أيّ محامٍ آخر كان ليفعل الشيء نفسه. على أيّ حال، لقد فات الأوان الآن».

قالت فرانسيس متلهفة لأن تنهي مقاطعة بروك: «لماذا لا تقرأ الوصية يا جيرالد؟ الوصية الحقيقية. إنني واثقة من أنها ما وعد به ريكس تماماً».

أمسكت شيللي بيد بروك وتوسلت إليه برقة: «أرجوك يا بروك، اسمع ما تقوله الوصية ثم قرّر».

حدّق إليها لحظة وما زال الغضب يتملكه، لكنه عاد ليجلس هادئاً.

إرتفع اسم فيليب غودارد كينغزلي بصفته المستفيد الرئيسي ووريث ثروة كينغزلي التي قدّرها الجد بحوالي مئتين وخمسين مليون دولار. أما فرانسيس التي انتظرت طويلاً لتسمع ما تركه لها الرجل العجوز، فقد كانت صدمتها بالغة. لقد ورثت أقل مما كانت تتوقع سراً، فشحب وجهها... رغم أن حصتها تقدّر بالملايين.

لكن بروك لم يرث شيئاً على الإطلاق.

وبعد الصمت الموحش الذي أعقب تلاوة الوصية، قال بروك يخاطب المحامي: «لن أقبل بهذه الوصية. لقد أحضرني جدي إلى البيت لكي يكفّر عمّا فعل. كان سيترك لي «مولغاري» وكل ملحقاته. لقد تحدثنا في هذا

الموضوع منذ أيام فقط بعد أن وصل إلى قرار بأنني من سيديرها. لقد منح فيليب فرصة لكنه لم يستطع إدارتها. هل ورد هذا في الوصية المتلفة، يا جيرالد؟ هل يمكنك أن تخبرنا بذلك؟».

هز المحامي رأسه بأسف بالغ: «لقد ذكرت السبب الذي جعلني أتلف الوثيقة، يا بروك. كنت أعلم أن التخمين لن يسبّب سوى الألم. أقسم أنني حاولت أن أغيّر الأمور بكل الطرق القانونية، لكن شروط الوصية غير المنجزة لم تكن كما ترجو».

فقال بروك من دون أن يخفي ازدراءه: «ولماذا عليّ أن أصدقك؟».

- لأنني محامٍ محترم للغاية.

- لا أشعر باحترام كبير لمهنتك. وشركتك المحترمة تهتم بالدرجة الأولى بالأجور الضخمة. كما أنك تقيم علاقة مع سيدة من أفراد أسرتي، إذا كنت قد نسيت، وذلك منذ سنوات عدة. ما كنت لأسمي ذلك أخلاقاً مهنية رفيعة.

رفع جيرالد متيلاند يديه بسرعة وقد شحب وجهه. كانت فرانسيس قد أسرّت إليه بأن لا أحد في الأسرة لديه فكرة عن علاقتهما لأنهما شديدا الحذر.

نظر فيليب إلى أمه مستغرباً: «علاقة؟ أي علاقة؟».

توترت شيللي حين رأت أنّ فيليب لا علم له بشيء، فالتفت إلى بروك وهي ترى الازدراء في عينيه: «هل كان عليك أن تكشف عن ذلك؟».

فأجاب بابتسامة ملتوية: «عن سرّهما الصغير القذر؟ أتراني جرحت فيليب، يا شيللي ذات القلب الحنون؟ لا بأس، سنتحدث عن هذا في وقت آخر. هذه ضربة خفيفة لعينة يا جيرالد. لن أتقبّل الأمر بسهولة وهدوء، لا سيّما بعد أن أخبرني جدّي بنيّته».

تمالك المحامي نفسه فجأة: «مع الأسف أن هذه كلها أقاويل، يا بروك».

فقالت شيللي وهي تشعر لأول مرة، بالسرور لحضورها: «كان بروك

قد أخبرني أنّ جده أكّد له حديثاً أن «مولغاري» ستكون من نصيبه».

انفجر فيليب يقول ذاهلاً من دون أن يحاول إخفاء غيرته، وهو يحدّق إلى وجهها: «بالله عليك يا شيللي، بجانب من أنت؟».

فقال له بروك متوتراً: «لماذا لا تبعد يدك عنها؟».

فقالت فرانسيس: «لماذا لا يخبرني أحد عن علاقة شيللي لوغان بكل هذا؟ إنها مسائل عائلية، وهي ليست من الأسرة ولن تكون أبداً».

فقال بروك بضحكة قصيرة: «يمكن للشخص أن يدرك سبب رفضك لوجود شيللي هنا. أعتقد أن كل ما قيل هنا كذب».

نظرت فرانسيس إليه بكراهية بالغة امتزجت بشيء من الخوف: «ماذا ستفعل؟ تستدعي الشرطة؟ ما من كذب أو مؤامرة...».

- هل قلت إنها مؤامرة؟ ربما عليّ أن أفكر في هذا الخيار.

فقال جيرالد بشفتين شاحبتين متوترتين: «هذه إهانة كبرى يا ولدي. عليك أن تعتذر لزوجة خالك».

فقال بروك: «لن أعتذر. لقد أتلفت الوصية الجديدة من دون أن يراها أحد لأنك أردت أن توفّر على الأسرة الألم، ومن الواضح أنك أغفلتني. لذا، هل أحيكت مؤامرة لحرماني من حقي في الإرث؟ رجل مثلك يا جيرالد لا يرغب في دخول السجن. ولكن لا تعوّل على شخص مثلي لئلا يوجّه اتهامات. كما أنّ يولا شاهدة. أعلم أنها استُدعيت كي تضع توقيعها، لقد أخبرتني بذلك بنفسها هذا الصباح».

فقال جيرالد ثائراً: «لم يكن لديها فكرة عن الوثيقة التي وقعتها ومحتوياتها. لقد وقّعت فقط».

- الشاهد لا يوقّع ليشهد على توقيع آخر من دون أن يرى ذلك التوقيع، لأن هذا غير قانوني. آسف يا جيرالد سأقاضيك في مسألة الوصية الثانية وأسباب إتلافها وقد تجد نفسك في مشكلة.

* * *

ارتفعت الهيلوكوبتر في الجوّ لكنها لم تتجه إلى وايبورن كما توقعت

شيللي بل طارا نحو قلب الصحراء المكشوفة. وبقلب يتألم أدركت أن بروك اقترب من نقطة الانفجار... فلم تظهر أي احتجاج وبقيت صامتة حتى هبطت الطائرة على أرض منبسطة تمتد حتى الأفق.

- سأعيدك بعد فترة. أريد أن أستعيد هدوئي.

سمعت العذاب في صوته فتفهمت مشاعره. وكان سهلاً عليها التعاطف معه فأجابت: «أنا لست مستعجلة».

قال متأملاً بكآبة: «إذن، تابع جدي تعذيبه حتى مات؟».

- هذه قسوة بالغة فقد توسل إليك كي تعود.

فأمسك بيدها: «أنت لم تعرفيه. لقد كرّس نفسه كي يحطمني حتى النهاية، كلوح من زجاج، وعاقبني لأنني لم أحضر أمي معي».

حدثتها غريزتها بأن هذه ليست الحقيقة: «أظن أنّ هذا زاد في ميل جدك إلى الإنتقام لكنك قلت بنفسك إنه لم يشأ أن ينتهي كل ما بناه إلى الانحدار أو الإفلاس أو البيع. وهذا ما قد يحدث إذا استلم فيليب وفرانسيس المسؤولية».

فقال بخشونة: «أتعنين أن هذا قد يحدث؟ مسكين فيليب! لا بدّ أنه يشعر بالفزع من المسؤولية».

- وهل تلومه؟ إنها مسؤولية ضخمة. كما أن لديه أمه، وهي ليست حمقاء.

- سيعاديها من أجلك.

وتوهجت عيناه وهو ينظر إليها، مرسلاً في كيانها تياراً كهربائياً.

فقالت: «ما عدا أن الجمع بيني وبين فيليب مستحيل. أظننا اتفقنا على ذلك».

- حتى مع كل تلك الأموال؟

حاول أن يبعد عن صوته المرارة والسخرية، ففشل. توسلت إليه: «لا تهاجمني، يا بروك».

- لا بأس، أعتذر. أنت أشرف شابة عرفتها وقد باركني الله

بمعرفتك.

فقالت بهدوء: «كفى».

- أتراهم يتوقعون مني حقاً أن أرضى بكل ذلك؟

فقالت مشككة: «وهل يقدم متيلاند على جرم كهذا؟».

- ربما، إذا وجد الأمر جديراً بذلك. يمكنه، مثلاً، أن يتزوج فرانسيس.

- لا أظنه يصل إلى هذا الحد.

- أنا لا أثق بأي منهما.

- ولكن عليك أن تهدأ لتفكر بوضوح.

اشتدت قبضته على يدها وهو يقول: «حسناً، هذا هو المكان المناسب لذلك. عندما كنت صبياً، كنت أمضي كثيراً من الوقت في الصحراء إذ كنت أكره العودة إلى البيت. «فمولغاري» مشحونة بالمؤامرات. أتلومينني إذا تساءلت عن مصير أبي؟ وإلى أين ذهب؟ ألم يكن قادراً على مواجهة جدي؟ حتى أنا نفسي استطعت ذلك. كنت شغوفاً وأنا صبي، بأبي. وأقسم أنه هو أيضاً كان شغوفاً بي. لدي أسئلة كثيرة يا شيللي. لماذا تخلّى عن حبه لأمي؟ هل من شيء منه في شخصي؟ هل يمكنني أنا، أن أهجر زوجتي وطفلي؟».

تنفست شيللي بحدة: «أنا واثقة تماماً من أنك لا تستطيع ذلك».

فقال هازلاً بعبوس: «وما الذي يجعلك بهذه الثقة؟».

- لا تنس أنك قلت لي مرة إن شيطاناً يسكنني.

- أنت شيطانة عندما تريدين، لكنك رائعة في لحظات غريبة غير متوقعة.

- ربما أصبح معك شخصاً مختلفاً عما أنا عليه في حياتي.

- وهل أنا في حياتك؟

تقابلت نظراتهما فقال بجد بالغ: «للأفضل أم للأسوأ؟».

- دعنا نرجو ألاّ يكون للأسوأ.

www.elromancia.com

سارا معاً، صامتين، ينظران إلى السهول المترامية ويستنشقان الهواء النقي. في هذا الوقت من النهار، كانت التلال المنحوتة تبدو قرمزية تحت السماء الزرقاء.

سألته وهما يسيران في هذا المكان، حيث الصمت غير العادي يكاد يكون محسوساً، لا تخترقه سوى زقزقة الطيور والنسيم المعطر برائحة شجر الأكاسيا: «إلى أين نحن ذاهبان، يا بروك؟».

فقال ويده حول معصمها: «إلى أين تريدين أن تذهبي؟».

تملكتها رغبة جنونية في أن تقول، إلى أي مكان معك. لكنك كبحت رغبتها لتقول: «ربما إلى التلال».

توقف قليلاً وقال: «أعني، إذا أمكنك أن تختاري الذهاب إلى مكان حيث الأمور أفضل».

- وهل ستأخذني؟

شعرت بضغط حقيقي خلف أضلعها، وأدركت أن ليس بإمكانها حماية نفسها من هذا الرجل. لا يمكنها أبداً أن تستعيد قلبها.

- كوني حذرة مما تتمنين.

- ألا تظن أنني سأكون آمنة معك؟

- ليس في هذه الأيام ومزاجي بهذا الشكل. إنك تمنحينني تعزية رائعة.

- هل أنت خائف مما قد تفعل؟

- باستثناء أمي، لم تأسر قلبي أي امرأة قط.

وبدا عليه ألم بالغ سرعان ما اختفى، فسألته: «ألا تريد ذلك؟».

فقال لاوياً فمه: «يمكن لشد أوتار القلب أن يكون مؤلماً جداً. لم تجيبي عن سؤالي؟ إلى أين تريدين الذهاب؟ أي مكان في العالم؟».

ومن دون تردد أجابت: «إلى المحيط فأنا لم أر البحر قط؟».

- يا إلهي، هذا ما افترضته.

- ثمة الكثير مما لم أره أو أفعله.

- إصلاح هذا سهل.

وبدا الحنان على وجهه.

- المال، المال، المال. من الصعب القيام بشيء من دون المال.

- ربما هذا هو السبب الذي جعل أسرتك تريد أن تبيعك إلى فيليب. انتظري حتى يعلموا أنه ورث «مولغاري».

- إنني منزعجة مما سمعته اليوم.

فأظلمت ملامحه: «متيلاند يرأس شركة قانونية ناجحة لكنه لم يلتزم بالأخلاق المهنية».

- أتعني مع والدة فيليب؟

توقف فجأة فظنت أنها ربما جرحت مشاعره بشكل ما.

- طبعاً، عليك أن تصدقيني. كنا، أنا وأمي، ندرك ما يحدث بين فرانسيس والمحامي. والأغلب أن كينغزلي، وهو الفطن الداهية كان يعلم هو أيضاً. ولعل كان هذا يسلّيه بطريقة شيطانية.

- أما كان على جيرالد أن يمتنع عن التصرف بشكل يعرض مهنته للخطر؟

- الذين يعرفون القانون جيداً، يعرفون كيف يخرقونه. الصعوبة ستكمن في إثبات ما فعله، ثم هناك عامل الوقت، فقد تأخذ القضية سنوات. هذا إذا نسينا الفضيحة.

- أيمكنك نسيانها؟

بقي صامتاً برهة، ثم قال: «الفضائح كثيرة في عائلتي».

- ثمة الكثير من الأقاويل حول أسرتي أيضاً.

قال بروك وهو يلتفت حوله: «ما كان لنا أن نتوغل كثيراً، فهناك الكثير من الأفاعي، هل الجو حار جداً بالنسبة إليك؟».

والتفت ينظر إلى وجهها فردّت: «أنا معتادة على حرارة الجو».

بدت بشرتها بنعومة وبياض زهرة الكاميليا، وقد توهّجت من الجهد وحرارة الجوّ، كما تجمعت قطرات العرق فوق شفتها العليا وتحت عينيها

اللامعتين.

واندفعت في كيانه المشاعر، بقوة كادت تفقده توازنه.

وعندما نظر في عينيها أدرك أنه لا يرغب فيها وحسب بل إنه بحاجة دائمة إليها. بدا له أن ثمة خيوط كثيرة تربط بينهما وتقوى مع مرور النهار.

مرت الدقائق وهما ينظران إلى بعضهما البعض.

سألته وهي تحبس أنفاسها، وقد تملكها الألم لملامحه المكتئبة الشاردة: «هل أنت بخير؟».

- علينا أن نعود أدراجنا.

وصل إلى هذا القرار الصعب وقلبه يتمزق لتسببه في إيلامها.

شيء في طريقة كلامه، ولمعان عينيه، جعل قلبها يخفق: «ظننت أننا سنعثر على كهف. لنلقِ على الأقل نظرة إلى داخل أكبرها، إنه قريب».

وأشارت إلى قبة تظللها شجرة: «قد نجد فيه صور ما يجعلك تشعر بتحسن. دقائق قليلة قبل أن تعود إلى مشاكلك، ومشاكلي أيضاً».

فقال محذراً: «قد يكون خطراً».

أطلقت ضحكة قصيرة مخنوقة: «أتراني سمعت جيداً؟ بروك تايسون يتحدث عن الخطر؟».

واتكأت على ذراعه: «هيا بنا، إنني أتحداك».

وبعد لحظات، انطلقت كالغزال وكأن كهف علاء الدين الرائع سينفتح أمامها. لكنه هتف بها يأمرها: «قفي، يا شيللي. سأدخل أنا أولاً، وسأقرر ما إذا علينا أن ندخل».

- لا بأس، أيها الرئيس.

حاولت أن تبدو بشوشاً رغم ما تملكها من مشاعر.

تقدّمت شيللي بحذر وهي ترى بروك يغيب في المدخل ثم توقفت لتتنفس بعمق. كان المكان مخيفاً موحشاً.

لا بد أن تلك الكرات القرمزية هي أزهار تنشر عطرها القوي كرائحة

البخور، رائحة أخذت تقوى كلما تقدّمت شيللي.

وقفت عند مدخل الكهف، متكئة على الجدار الصخري المتشقق. شعرت بشيء من الدوار ربما بسبب رائحة البخور القوية.

- ماذا حدث يا شيللي؟

واقترب منها يحدق إلى وجهها: «إنه الحرّ، تباً له، ما كان لنا أن نقطع كل تلك المسافة. إنني ألوم نفسي ومزاجي، فقد كنت أشعر وكأنني أسير على حافة العالم. هل أنت بخير؟».

وأمسك بذقنها يدير وجهها إليه. كان بالغ الرقة. وذكرته ببعض المخلوقات الأثيرية في لوحات الرسامين القدماء.

- أنا بخير!

حاولت أن تبتسم لتخفي شعوراً بالضياع، وأضافت وهي تشير إلى النباتات الحمراء: «هل رأيت في حياتك هذه النباتات؟».

قطب جبينه وردّ: «لا أظن ذلك. رائحتها قوية للغاية، أشبه برائحة البخور. من الأفضل أن تدخلي إلى الكهف لعدة دقائق، جوّه بارد بشكل محبّر».

فسألته وهي تراه متزعجاً للغاية: «هل من صور على الجدران؟».

- انتظري، وسترين!

وبعد أن تأقلم نظرها مع العتمة بعد أشعة الشمس القوية، سألها: «حسناً؟».

وأخذ يرقب المشاعر المرتسمة على وجهها المعبّر: «آه، يا بروك».

نظرت شيللي من حولها ببهجة وحيرة. كان الكهف أشبه بمعرض فنون.

خلعت قبعتها فشعرت بالهواء البارد على رأسها، ثم تخللت شعرها بأصابعها وتركته ينسدل على ظهرها. رفعت رأسها وأخذت تتأمل السقف ورسومه، فقال بروك بهدوء: «إنه زائر من عالم آخر، كل ما أرجوه هو ألاّ نزعجه».

تملكتها رجفة من الرسم الأساسي في سقف الكهف ومن هبوط الحرارة المفاجيء أيضاً: «هذا مخيف حقاً، ومن هم كل هؤلاء الناس؟».

ونقلت بصرها إلى مجموعة من الأشخاص الذين بدوا وكأنهم يرقصون على وقع موسيقى احتفالية لا تقاوم.

- أشعر بأنني أتمتع بامتياز خاص لرؤية هذا. هل تظن أنه إله؟ يبدو وكأنه من عالم آخر، إنه يشبه لوحة «ووندجنيا» الشهيرة في «كمبرلي». ليس بشراً.

اقترب من الجدار الصخري ليتفحص الأشكال الصغيرة: «ذلك الشخص المرسوم على السقف يبدو وكأنه يجول في السماء، أو مخلوق خرافي. لا بد من وجود عشرات الآلاف من الصور في الكهوف في الوسط والشمال. هل تشعرين بتحسن؟».

التفت إليه: «نعم. ألست مسروراً لأنني جعلتك تحضر إلى هنا؟».

فقال بعنف: «يا له من نهار!».

رددت كلامه والمشاعر تعذبها: «نعم، يا له من نهار. ما حدث هو أكثر مما يمكن استيعابه. أنا آسفة جداً يا بروك، للمعاملة التي لاقيتها عندما أفكر كيف أن جدك...».

قاطعها وهو يدور في أنحاء الكهف بضيق جعلها تشعر وكأنه هرّ كبير في قفص: «خدعني؟».

- أردت أن أقول إنه كان و... وعدك....

قاطعها مصمماً على مقاومة مشاعره: «علينا أن نذهب، يا شيللي».

- نعم، آسفة، فأنت لم تشأ المجيء إلى هنا.

أحنت رأسها لا تجرؤ على إطالة النظر إليه. كان توترها بالغاً. لكن كل شيء سيبقى على ما يرام ما دام لم يلمسها.

انحنت تلتقط قبعتها ثم انتصبت بحركة رشيقة مثيرة من دون وعي منها.

وكانت قد وصلت إلى المدخل تقريباً، عندما غرد طير بصوت عالٍ

ثاقب، فانطلقت ضرخة لا إرادية من حلقها.

كانت تعلم أنها لا تواجه هذا الوضع المخيف جيداً. كانت عديمة الخبرة تماماً. لقد عاش بروك في مخيّلتها فترة طويلة جداً، وهي تريده أن يضمّها إليه بدلاً من أن يحدّق إليها بتلك الرزانة. كيف يمكن لرجل له مثل هاتين العينين البراقتين أن يبدو بهذا الشرود الكئيب؟ كانت تعلم أنه يحاول أن يتحكم في مشاعر قوية تتملكه.

عندئذ، تحركت بسرعة إذ هبّت كرامتها لتنقذها، لكنها احتكّت به سهواً، أثناء مرورها. لم يكن يسدّ طريقها، لكنها كادت تصطدم به.

هل هو الشوق؟ أم أنها رائحة البخور من نبات الصحراء؟ أخذت تترنح قليلاً فيما قلبها يخفق بجنون، ثم رفعت يدها تغطي وجهها تقريباً.

عندئذ، فقد بروك إرادته. إنه يريدها أكثر مما أراد أي شيء آخر في حياته.

تنفس بعمق ومدّ ذراعيه واحتضنها بسرعة.

تأوه وهو يسمع صوتاً في أعماقه يطالبه بأن يتوقف. أتركها... أتركها... أطلقها.

قالت بصوت متقطع: «أظنك تحبني قليلاً».

كانت تحاول أن تستوعب هذه العاصفة من المشاعر.

أخذ يحدّق إلى عينيها وقال: «ربما هذا صحيح».

ثم لامس خدها وأضاف: «علينا أن نعود، فأنا لا أضمن نفسي».

اغرورقت عيناها بالدموع، فقال متوسلاً: «أرجوك لا تبكي».

- لا أستطيع منع نفسي.

- من المفترض أن آخذك إلى بيتك. وعليّ أن أعود إلى «مولغاري» من أجل جنازة جدي، ولأحرس مصالحي، فهيّا بنا.

٨ - لن أبقى

كانت الأسرة كلها في انتظارها عندما عادت إلى وايبورن. كان الوقت غروباً، والشفق رائعاً بلونيه القرمزي والذهبي.

- أين كنت؟ لقد تركت «مولغاري» منذ ساعات. أين كنت؟

طرحت أماندا عليها هذا السؤال قبل أن تطأ شيللي الشرفة حيث كانوا مجتمعين.

فأجابت شيللي متلهفة إلى أن تبدو طبيعية: «مع بروك، كما هو واضح».

عندما كانت بحاجة إلى أسرتها لم تهتم بها، وعندما لم تعد بحاجة إليها تحوّل اهتمام الكل إليها.

وتابعت تقول: «كان متكدراً للغاية. وما شأنك يا أماندا، على أيّ حال؟».

أمرها أبوها بلهجة جادة وهو يقف: «أدخلي إلى البيت، يا شيللي». باتريك لوغان، الذي كان ذات يوم رجلاً وسيماً إيرلندي الملامح، أصبح الآن رجلاً مريضاً محطماً. في شبابهما وحتى موت ابنهما الصغير كان والدها ووالدتها زوجين محبوبين رائعي المظهر، ومجتهدين في العمل يتوقعان مستقبلاً مشرقاً للغاية. لكن المأساة أثّرت في الإثنين إلى حد بالغ، فكان تحطمهما واضحاً.

قالت ونظراتها تتأمل أختها مشككة: «أرجو ألاّ تكوني قد تورطت مع بروك تايسون فلديه تلك السمعة».

احمر وجه شيللي: «هذا أول ما تفكرين فيه، أليس كذلك؟ أنت نفسك

لديك مثل هذه السمعة».

فصرخ بها أبوها فجأة: «هذا يكفي يا شيللي. لدى أماندا الحق في أن تسألك فقد كنا قلقين عليك إذ اتصل بك فيليب مرات عدة».

- ولماذا يتصل بي؟

وشعرت بغضب شديد. ماذا يظن فيليب نفسه؟ زوجها؟.

- أراد أن يعرف لماذا لم تعودي إلى البيت بعد.

- لقد غادرت «مولغاري» بعد الثانية مباشرة. خفنا أن تكوني قد تعرّضت لحادث.

أجابت بحدة ناسية احترامها لأبيها: «لا بدّ أن فيليب خاف من أن أكون مع بروك».

كان أبوها حاد الطبع إلاّ أنه لم يضربها قط إذ كان يعلم أنها لن تحتمل ذلك.

- فيليب يغار جداً من بروك. وأنا آسفة لقلقكم. أراد بروك بعض الراحة، فهبط في الصحراء. لطالما كان يعشق الصحراء فهي تمنحه الراحة.

وتابعت أماندا التحديق إلى أختها وقد انتبهت على الفور إلى أن هناك تغييراً ما. بدت شيللي، رغم قضائها فترة العصر في حرارة جوّ الصحراء، جميلة للغاية... وحملقت أماندا فيها، فقالت شيللي: «أنا بحاجة إلى حمام سريع. كان الجوّ حاراً للغاية».

وللمرة الأولى تكلمت أمها قائلة: «أسرعي، يا شيللي. لدينا أمور نريد أن نناقشها».

* * *

وعندما عادت، كانت أسرتها مجتمعة في غرفة الجلوس. كان أبوها يحدّق إلى ركبتيه، بينما جلست أمها مغمضة العينين. أما أماندا فقد بدا فروغ صبرها جلياً.

قال أبوها وهو يخفض بصره عن وجهها كعادته: «إجلسي. لقد

www.elromancia.com

أجبت على أول مكالمة من فيليب. فأسرّ إليّ بخبر وصية جده. وكما فهمت، هو المستفيد الأول، وريث ريكس كينغزلي. «مولغاري» أصبحت ملكه. أما بروك فلم يأت الجدّ على ذكره في الوصية. شخصياً، أجد هذا غير عادل، رغم أن هذا ليس من شأني. كان كينغزلي رجلاً قاسياً للغاية. لا أستطيع أن أتصوّر لماذا أعاد الغلام إلى موطنه».

- بروك ليس غلاماً يا أبي، كما تتذكره، فهو كامل الرجولة، ولا يمكن مقارنة فيليب به.

فقالت أماندا، ابنة أبيها المفضلة، هازئة: «هذا يكفي، فيليب هو من يملك المال. لا بد أنه يساوي الآن ملايين وملايين. يا إلهي، ليته انجذب إليّ، لكنك أنت التي أعجبته».

فقالت شيللي: «يسعدني أن أقدمه لك».

نظر إليها أبوها بسرعة وقد التمعت عيناه بشكل غريب: «أرجو أن نتفق كلنا على هذا، يا شيللي. أخبرني فيليب أنه يحبك وأنه مستعد لأن يتزوجك، ألا يكفي هذا لأي فتاة؟ وبالمناسبة، عليّ أن أخبرك أنني ألغيت حفلة السياح التي كانت ستقام هنا فأنا لا أحب الغرباء هنا. أعلم أنهم يدرّون علينا مالاً، لكننا لن نحتاجه الآن».

شعرت شيللي بما يشبه الخيانة: «لماذا فعلت ذلك يا أبي؟ لقد خططت لكل شيء، وسيتوجب عليّ أن أعيد لهم العربون. كان عليك أن تستشيرني، فنحن بحاجة ماسة إلى المال».

مالت أمها إلى الأمام وأمسكت بيدها: «استمعي إلى أبيك يا شيللي، لا تظني أننا لا نقدر جهودك. إنك فتاة ماهرة كفوءة للغاية. ويمكنك أن تصبحي ما تريدينه، إذا سنحت لك الفرصة. ولقد سنحت لك الآن. ما من شابة عاقلة ترفض فيليب كينغزلي. بإمكانه أن يعطيك العالم، وهو مستعد لذلك».

شعرت شيللي بوجهها يحترق: «ما عدا أنني لا أحبه، يا أمي. متى ستأخذون هذا في الحسبان؟ لن أحبه أبداً فهو لا يجذبني».

فقالت أماندا بتوبيخ ساخر: «ليس كما تحبين بروك. أنا أوافقك على أنه جذاب لكنه ليس من النوع الذي يعرض الزواج».

فقال الأب وهو ينظر إلى أماندا غاضباً: «نحن لا نتحدث عن الجاذبية هنا يا أماندا، بل عن الزواج، وهو المهم. أهم شيء في حياة المرأة. فيليب شاب لائق حسن المظهر. صحيح أنه لا يقارن بابن عمته لكنه شاب ومعاف والحب سيأتي في ما بعد».

فصاحت شيللي بيأس: «أنت لا تصغي إليّ، يا أبي. أنا لا أريد فيليب».

- من الأفضل أن تريديه إذن. فهو سيكرّس حياته لك. إنه يحبك، أيتها الفتاة الحمقاء. وهذا يشرفك.

فقالت أماندا بجهد بالغ: «وفكري في أنه سيساعدنا. إذا أصبحت السيدة كينغزلي، فستكون هذه خطوة كبيرة لنا. آل كينغزلي أناس مهمون والآن وبعد أن رحل الجد، سيصبح فيليب غنياً وذا سلطة. وإذا ساعدته، فسيصبح الرجل الذي تريدينه أن يكون».

حدّقت شيللي إلى أختها غير مصدقة: «ما الذي نتحدث عنه هنا يا أماندا؟ البغاء؟».

التهب وجه الأب غضباً: «لا أريدك أن تتكلمي بهذا الشكل، يا شيللي. ما نتحدث عنه هو زواج جيد لك. إننا نحبك».

- أحقاً تحبني يا أبي؟

قررت أخيراً أن تسأل فهذا ما كانت تتساءل عنه على الدوام. ونظرت إلى والديها بحزن: «أنت تكاد لا تنظر إليّ، يا أبي. أما أمي فتهرب كلما حاولت أن أتحدث إليها. أنتما لا تحبانني، بل تكرهانني بمرارة لأنني نجوت بينما سين مات».

صرخ بها أبوها بصوت كالرعد: «أسكتي الآن، يا شيللي».

كأن ليس لها الحق في أن تتطرق إلى هذا الموضوع.

- أرجوك يا أبي أن تسمح لي بالكلام. عدم الحديث عمّا حصل لسين

يؤذينا كلنا. كان توأمي... نصفي الآخر. إنه لم يفارقني قط. ما زال بقربي، وأنا أخبره بما لا أستطيع أن أخبره به أحد».

صرف أبوها بأسنانه وأخذ يهز رأسه كحيوان هائج: «هل ستسكتين؟».

وصاحت الأم وأماندا معاً: «نعم، أسكتي يا شيللي».

- نعم. كلكم تريدونني أن أسكت، فهذا يناسبكم. منذ ذلك اليوم وأنتم تعاملونني وكأنني من دفعه فوقع في البركة. كنت في السادسة، ولا أستطيع أن أتذكر سوى الصراخ. أنا أعرف أنني لم أسبب لسين أي ضرر. ما كنت لأستطيع ذلك لأني أحبه، وكان هو يحبني أكثر مما يحب أياً منكم. كان دوماً يلتجيء إليّ وليس إلى ماندي.

فقالت أماندا بمرارة: «من المؤسف، إذن، أنك دفعته ليقع. لا تنظري إليّ وكأنك ستصابين بالإغماء، كل منا يعلم هذا».

فقالت الأم بصدمة آلمتها: «كم أنت قاسية يا أماندا. أنا لا أعلم هذا أبداً».

فقالت شيللي بصوت متهدج: «كلكم قساة. لطالما كنت تدينيني، يا أماندا. لكنك ما كنت لتخصصي وقتك لرعايتنا».

فصاح الأب وهو ينظر إلى شيللي: «أريد أن ينتهي هذا. محاولة حل لغز ما حدث لن يفيد بشيء. كلنا أحببنا سين، فقد كان ابني، ولا أظنكما تدركان ما يعني هذا بالنسبة إلى الرجل... أن يكون له ابن».

فقالت شيللي: «أنت لم تمنح ابنتيك فرصة لذلك، يا أبي لا سيّما أنا».

فقال: «هل قُدّر علينا أن نتألم دوماً لأنك تذكّرينا بسين بشكل فظيع؟ صغيرنا سين؟ كان غالياً علينا جداً جداً».

- وأنا أيضاً غالية، يا أبي، إذا استطعت فقط أن ترى ذلك.

فانفجرت أمها تقول وعيناها تنطقان بالندم: «شيللي، أنت تعنين لنا الكثير».

أصبحت الأم ترى هذه الأيام مدى الخطأ الذي ارتكبته الأسرة بحق

ابنتها الصغرى: «أنت فتاة غالية. فتاة قوية، وأنا وأبوك نعلم كم كان الأمر صعباً عليك».

سألت أماندا غاضبة: «وأنا؟».

ردّت شيللي: «أنت تشبهين ماما، وأنا وسين نشبه بابا. فقد ورثنا لونها. لو أن لوني ليس مختلفاً، لو كنت شقراء زرقاء العينين مثل أماندا، لأحبيتني أنا أيضاً».

أحنت الأم رأسها خزياً وأسفاً وكأن سرّها العميق انكشف: «كل ما يمكنني أن أقوله هو أننا نحبك، رغم صعوبة التصريح بذلك. إننا نريد لك الأفضل، وأفضل شيء للمرأة هو زواج جيد. فيليب رجل امرأة واحدة وسيكون مخلصاً لك».

فقال أبوها: «إننا نريد لك الاستقرار والأمان. سيأتي فيليب عند الصباح ليطلب يدك مني رسمياً».

صعقت شيللي: «لا بد أنك تمزح، يا أبي. يطلب يدي منك؟ ألسنا في القرن الواحد والعشرين؟ هل ما زالت الملكة فيكتوريا على العرش؟».

بدا أبوها وكأن صبره سيفرغ: «هذا هو الأمر الصواب. أنا أبوك، وكثير من الناس يفعلون هذا. قد يكون قديم الطراز، لكنني أعتبره تهذيباً ضرورياً».

وضعت أماندا يدها على يد أبيها تسانده، ثم قالت لأختها: «فكري في الأمر جيداً، يا شيللي. أنت الرابحة هنا. وإذا ربحت، ربحنا نحن أيضاً».

* * *

حرصت شيللي على أن تكون الأولى في استقبال فيليب، مع أن كلمة (استقبال) لم تكن بالكلمة الدقيقة. إن والديها على وشك تسليمها إلى من يدفع الثمن الأعلى في المزاد العلني، وأختها التي لا تكبرها بأكثر من أربع سنوات موافقة.

جعلوا الأمر يبدو وكأن هدفهم هو مصلحتها ومستقبلها، وأمنها،

ووضعها في الحياة، في حين أنّ كل ما يفكرون فيه هو مصلحتهم الذاتية. زواجها من فيليب هو لمساعدتهم، لأن مستقبل أسرة لوغان سيء جداً. زواج المصلحة ما زال موجوداً في المجتمع، ويبدو أن الحب وحده لم يعد كافياً بالنسبة إلى بعض الناس. لقد بذلوا جهدهم لكي يرغموها على الموافقة لكنها غير مغرمة بذلك الرجل.

وماذا عن بروك؟ ماذا سيظن بروك إذا عرف أن فيليب جاء ليراها؟

بدت أمها أصغر سناً وأكثر إشراقاً بعد أن ارتدت ثوباً من ثياب أماندا الصيفية، وغسلت شعرها، وجعلته جعداً. حتى أن أباها ارتدى قميصاً وبنطلوناً أنيقين.

بدا وكأنهما متحمسان لما سيحدث. لكن شيللي كانت ثائرة ثورة عنيفة، وهي تحدث نفسها بأنها لن تضحي. فلتبحث أماندا لنفسها عن مليونير لكي تنقذ الأسرة.

بقيت بعيدة حتى توقف محرك الهيليكوبتر، فنظرت إلى فيليب وهو يقفز منها إلى الأرض بنشاط. كان والدها حقاً ففيليب حسن المظهر عندما لا يبدو مهزوماً وهو يبدو منتظراً هذا الصباح أشبه برجل آتٍ ليأخذ عروسه. تنفست بعمق ثم زفرت. ذكرت نفسها بأن عليها أن تحافظ على هدوئها، رغم أنها مستعدة لما سيحدث.

نادها بابتهاج: «شيللي! لم أتوقع منك أن تنزلي لأجلي. كنت سأسير إلى المنزل».

فقالت وهي تنتظره ليصل إليها: «يمكننا أن نذهب بالسيارة، ولكن علينا أولاً أن نتحدث. ماذا تفعل هنا، يا فيليب؟ لا يمكن أن تكون جاداً في طلب يدي من أبي؟».

فتغيرت ملامحه بسرعة: «ولكن، يا شيللي، ستسرّين».

- وكيف خطرت لك هذه الفكرة بعد أن أخبرتك بأنني لا أضمر لك مشاعر حب؟ كنا صديقين لفترة من الزمن، فماذا تريد من واء تجسسك عليّ؟ ولِمَ اتصلت بي ثلاث أو أربع مرات في الأمس؟

- كنت قلقاً عليك، فأنا لا أثق ببروك. إنني أحبك للغاية وإذا سمحت لنفسك بأن تحبيني، فسيأتي الحب.

فقالت بغضب: «هذا هراء!».

لم يعد يهمها أن تؤلمه: «أنا لاأحبك. أنا أعرف أن سماعك هذا صعب عليك جداً، لكنه الحقيقة. كيف تجرؤ على التحدث مع أبي عن خطط للزواج؟ خططي لا تتضمنك أنت».

- هذا لأنك عنيدة يا شيللي. أنت تحبين محاربة الأمور، ستحبينني إذا منحتني الفرصة وقد أوضحت هذا لأبيك. والداك يحبانني وهما موافقان عليّ، أليس هذا مهماً بالنسبة إليك؟ ألا تريدين أن تساعديهما؟ بإمكان زواجنا أن يعيدهما إلى الحياة فأنا رجل غني جداً. ألم يصبح هذا واضحاً بعد؟

- عليك أن تفكر في ما سيفعله بروك.

- لن يفعل شيئاً، فالوصية محكمة. هل ستعودين معي إلى «مولغاري»؟

فقالت ساخطة لإصراره: «كلمة واحدة... كلا».

- أمي هي السبب، أليس كذلك؟ فهي لم ترحب بك على الإطلاق. سأغيّر كل هذا. لا تدعيها تقلقك، لقد سيطرت عليّ مدة طويلة جداً وبإمكانها أن تذهب الآن. ربما ليس على الفور، ولكن عندما نستقر. لقد أكّدت أن إدعاء بروك القذر بعلاقة بينها وبين المحامي لا صحة له.

- أنت تتصرف كالنعامة يا فيليب. إنك تخبيء رأسك في الرمال. والداي ينتظرانك لتناول الشاي، لكن هذا لن يشكّل أي فرق. لقد علمت أن أختي أماندا تبحث عن زوج غني.

ضحك باختصار فبدت ملامحه نسخة عن ملامح أمه المتغطرسة: «أماندا لا تجذبني على الإطلاق. وأنا، في الواقع، لا أستطيع أن أصدق أنك أختها، إنها مبتذلة».

- غريب، لو كنت مكانك لفضلتها على أمك. والآن، فلنصعد إلى

المنزل وننهي هذا الأمر. لكن حذار أن تحاول قول أي هراء لأبي وإلا قد أفقد أعصابي.

وابتعدت سائرة نحو سيارة الجيب. وفي الطريق سألته: «هل أخبرت بروك إلى أين أنت ذاهب؟».

- في الواقع، فعلت. لقد ضحك بطريقته الشيطانية تلك. إنه يظنني أحمق، لكنني أعرف أنني لست كذلك. لديّ الآن مسؤولية ضخمة. وسأضع خطة لمساعدة بروك. سوف احتاجه لأطمئن إلى أن أعمالنا تسير جيداً. إنه حازم وماهر في حل المشاكل، والرجال يحترمونه. ما رأيك؟ يمكنه أن يستلم «ستراتداوني»، ويدير الأعمال فيها. هذا سيسره.

قالت بسخرية بالغة فاتت فيليب: «نعم، أنا واثقة من ذلك!».

- لا أريدك أن تظني أن ليس لديّ قلب.

* * *

ملأها تصرف أسرتها خجلاً. لقد عاملوا فيليب معاملة الملوك. ولأن فيليب هو فيليب، فقد سرّه ذلك. وبدا أنه يعتقد أن الزواج منها أمر محتّم ما داموا قرروا ذلك.

فكرت شيللي غاضبة بأنها أشبه بالبقرة الفائزة في المعرض، فما الذي يمنعها من أن تخور كالبقرة؟ وتساءلت متى ستبدأ المساومة على سعر البيع؟ إنها ليست بشراً على الإطلاق.

لم يهتموا بها مثقال ذرة فهي مجرد وسيلة. نظرة إلى وجه فيليب جعلتها تدرك أنه يعرف ما هو متوقع منه فثمة ثمن عليه أن يدفعه.

عندئذٍ، أدركت أن بقاءها في البيت أصبح مستحيلاً إلاّ إذا أذعنت لرغبتهم جميعاً. وزواجها من فيليب سيجعلها تعيش حياة تعيسة. في الواقع، إنها تعيسة منذ سنوات. فحبها وولاؤها لأسرتها ربطاها بها، وعدم الاهتمام بمشاعرها الذي أظهروه الآن أطلق سراحها.

لا مكان حقيقي لها في وايبورن. إنه مكان أبيها فهي لم تستطع أن تمنعه من إقفال عملها، وقد قام بعمل شنيع بإلغاء حفلتها السياحية.

وأخيراً، انتصر الغضب على حيرتها وارتباكها. إنها بحاجة ماسة إلى أن تبتعد عن هذا المكان لكي تفكر. ستمضي أياماً عدة في المدينة وستمكث في الفندق. لكن هل سيدعها أبوها تأخذ الشاحنة؟ عليها أن تفكر في شيء ما، أن تتصرف! يمكنها أن تقول إن عليها أن تذهب إلى المخزن العام لتعيد لهم بضائعهم.

موت ريكس كينغزلي فرض عليهم جميعاً اتخاذ قرارات. أبوها اتخذ قراره، وعندما يقرر، لا يمكن لأحد أن يجعله يبدّل رأيه.

لا تستطيع أن تبقى.

* * *

لم تقم شيللي بمثل تلك الرحلة الطويلة المجهدة في «كوميرا كروسينغ». كان ذهنها مشغولاً بكل الأحداث الهامة التي حفلت بها الأيام القليلة الماضية. وكان أبوها قد مانع قليلاً حين طلبت منه أن يعيرها السيارة الصغيرة، بحجة أنها ستعيد إلى المخزن المؤن لتستعيد ثمنها. أخبرتهم أنها قد تمكث يوماً أو يومين لأنّ لديها الكثير لتفكر فيه.

أومأ أبوها موافقاً وكأنه يعلم أن منحها وقتاً للتفكير سيوصلها إلى القرار الصحيح بالنسبة إلى الزواج من فيليب.

جهزت لنفسها حقيبة ملابس صغيرة، ثم خرجت من باب المنزل الخلفي واستقلت السيارة. لم يودعها أحد. وصلت إلى المدينة في منتصف النهار، مرهقة متعبة العينين رغم النظارات الشمسية، شاعرة بالألم في ظهرها ورقبتها وساقيها. أوقفت السيارة خلف الفندق.

سألها الموظف المسؤول: «أتريدين الغرفة نفسها يا آنسة؟».

- هذا حسن يا ميك. فقد اعتدت عليها.

بعد ساعة عادت إلى الشارع الرئيسي بعد أن تحدّثت إلى آني هوب، مديرة المخزن العام.

كان حديث المدينة يدور حول وفاة ريكس كينغزلي. وكان الكل يتمنى أن يتم إنصاف بروك.

وفيما هي تغادر المخزن العام، سمعت وقع خطوات خلفها، وأحسّت بيد على كتفها: «شيللي، أنت التي أريد رؤيتها بالذات!».

التفتت شيللي ثم أشرق وجهها بابتسامة: «كريستين! ما أجمل أن أراك! كيف حالك؟».

وقفت أمامها شابة غير عادية الطول والجمال، وصورة للسعادة والصحة والأناقة البالغة. كانت كريستين كلايرون، عارضة الأزياء العالمية السابقة، قد أصبحت زوجة ميتش كلايرون صاحب «مركز مرجيميا».

- بأفضل حال. لدي خبر رائع لك لا أستطيع تأجيله، فهل يمكننا أن نتناول فنجان قهوة؟

- عظيم!

وتملك شيللي السرور. كانت تتمنى لو أن لها أختاً مثل كريستين، امرأة عاطفية ودودة: «أشعر بذبذبات إيجابية. تبدين رائعة، الحياة الزوجية تلائمك».

- أنا سعيدة جداً، الحب الحقيقي معجزة يا شيللي، سأدعو الله كي تجديه.

- أظنني وجدته.

- هل أنت جادة؟

وأمسكتها بذراعها ونظرت في وجهها متفحصة، فأجابت شيللي باسمة: «نعم، جادة».

- يا حلوتي، عليك أن تخبريني المزيد.

بدا الاهتمام على وجه كريستين الجميل. وبعد دقائق كانتا جالستين إلى مائدة بجانب النافذة في المقهى وأمامهما طبق من الفطائر وفنجاني قهوة.

قالت شيللي وهي تضع حقيبتها على الأرض: «أخبارك أولاً».

فقالت كريستين بضحكة انفعال: «لن تصدقي هذا أبداً. لقد عثرنا

على كنز كلايرون».

طرفت شيللي بعينيها: «لا بد أنك تمزحين!».

- هذا الصباح بالذات. اتصلت بمنزلك على الفور فأخبرتني أماندا أنك ذهبت إلى المدينة. أنا منفعلة جداً ومبتهجة، وكل هذا بسببك. أقنع ميتش كيل بأن يتّبعا إحساسك الداخلي.

- وهل نجح ذلك؟ هذا محيّر. كل هذا لأنني ظننت أن مكان الكنز كان مخطوطاً على شكل سلحفاة. لقد خطر هذا ببالي فقط لأنني أرسم.

أومأت كريستين وعيناها تلمعان: «جدول السلحفاة حيث كان «كنز كلايرون» مدفوناً تحت أنف الأسرة مباشرة. لقد استعانا بجهاز لكشف المعادن واضطرا أن يمشطا ضفتي الجدول. وبعد العمل لحوالي الساعتين، قررا الاستعانة بالرفش والمعول. وكشف الحفر عن صندوق معدني يغطيه صدأ كثيف».

- وماذا فيه؟ أي شيء يستحق الذكر؟

ردّت كريستين: «الذهب، يا عزيزتي، ذهب وجواهر! أخذ ميتش وكيل يهتفان كالأطفال. لا أستطيع أن أصف لك بهجتنا بذلك. ساره وكيل، أنا وميتش. اللغز الكبير انكشف وذلك بفضلك».

- هذا شيء مثير للغاية. أنا مسرورة جداً لأجلكم. قصة الأموال كانت صحيحة إذن.

مالت كريستين إلى الأمام تشدّ على يد شيللي: «ونحن جميعاً شاكرون لك. ولكن هذه ليست النهاية. لقد قررنا جميعاً أن نمنحك مكافأة، لأنك تستحقين ذلك».

وللوهلة الأولى، لم تعد شيللي تتحكم في تنفسها وتملكها الارتباك: «كريستين، هذا لطف بالغ. لكنكم لا تدينون لي بأي مكافأة».

- بل ستحصلين عليها، العدل هو العدل. ما كنا لنكتشف الكنز لولاك، وهو ثمين جداً.

- كل ما فعلته هو أنني أشرت بشيء ما على ميتش. أنتم أصدقائي.

فقالت كريستين بإخلاص واضح: «نحن نحبك ونريدك أن تزوري «مرجيميا» قريباً جداً حيث تمضين بضعة أيام. سيأتي ميتش ليأخذك. عليك أن تخبرينا فقط عن الوقت المناسب».

- يسرني هذا جداً. في الواقع، لا أستطيع أن أصدق أنني صادفتك اليوم من بين كل الأيام. فأنا متلهفة كي أجد من أتحدث إليه، شخصاً أثق به.

بدا الاهتمام على وجه كريستين: «تعالي إذن، هل الأمر يخص أسرتك؟».

- أتعلمين أن ريكس كينغزلي مات؟

- بالتأكيد. كل المدينة تعلم. يقولون إن بروك لم يُذكر في الوصية، هل هذا صحيح؟ سمعت أنه عاد. لطالما كان فتى رائعاً!

شعرت شيللي بوجهها يحمّر، فقالت كريستين: «ما الذي حدث؟».

نظرت إليها برقة بالغة، فباحت بكل شيء. وأخيراً قالت كريستين: «لا يمكن لريكس كينغزلي أن يخبر بروك بشيء، ثم يفعل شيئاً آخر. هذه قسوة بالغة، حتى بالنسبة إليه. إذا احتكم بروك إلى القضاء، فقضيته قوية. يبدو قولي هذا فظاً، لكنني لا أستطيع أن أرى فيليب يستولي على كل شيء. كما أن ضغط أسرتك عليك لكي تتزوجي فيليب أمر فظيع. ألم يقنع فيليب برفضك؟».

- أمانيه تجعله يصدق أنني سأتزوجه في النهاية.

- وماذا عن بروك؟

فتنهدت شيللي: «لم أستطع منع نفسي من الوقوع في حبه يا كريستين».

فقالت كريستين ضاحكة: «إذا كان الشاب الذي أتذكره، فاختيارك سيء، أليس كذلك؟».

- أترينني كنت ساذجة للغاية؟ أترينني عرضّت نفسي لكثير من الألم؟ لقد أخبرني بروك أنه لا يستطيع أن يقرر شيئاً إذ عليه أولاً أن ينظم حياته.

- ألا تظنينه يستغلك؟ إنني أتذكره محطماً للقلوب.

هزّت شيللي رأسها: «لا أظن ذلك. بروك خشن الطباع لكنه ليس قاسياً. إنه حساس للغاية، أظنه يحبني قليلاً هو أيضاً. لكنني لا أريده أن يشعر أنه وقع في الشرك. الغضب والمرارة يتملكانه من جده ومعاملته له».

فقالت كريستين بفتور: «لديه كل الحق في أن يكون كذلك. فقد كان ريكس كينغزلي طاغية. لقد مرّ بروك بأوقات صعبة جداً، ولا بد أن هذا ترك فيه آثاراً نفسية عميقة».

أجابت شيللي بحزن: «هذا صحيح».

وضعت كريستين يدها على يد شيللي: «لكنك فتاة ذات لمسة شافية. هذه هي صورتك في ذهني. وأنت شجاعة واسعة الحيلة، هذا عدا الجمال والمقدرة. ما الذي يطلبه الرجل أكثر من ذلك؟ هل عاد إلى هنا نهائياً؟».

هزت شيللي كتفيها: «من يعلم؟ لا أظنني أحتمل رحيله إذا حدث. أظن أنّ الأمر يتوقف على مصير هذه الوصية النهائي».

- هل سترحلين معه إذا طلب منك ذلك؟

فأجابت شيللي ببساطة: «إلى آخر العالم. الوسيلة الوحيدة كي أستعيد حياتي مع أسرتي هي أن أتزوج فيليب. وهذا ما لا أستطيعه، حتى لو لم يكن هناك بروك. لا يمكنني ذلك».

- وماذا ستفعلين إذن؟ تعالي إلينا أثناء تفكيرك في أمورك، فالحياة ستكون صعبة في بيتك.

- هذا صحيح، فهو ليس المكان المثالي لي.

- حسناً، دعوتي لك قائمة. يمكنك مرافقتي الآن، إذا شئت. نحن نحبك حقاً يا شيللي ولدينا غرف كثيرة.

كانت كريستين تتحدث بعطف بالغ، فعضت شيللي شفتها: «أنا أقدّر هذه الدعوة حقاً يا كريستين، دعيني أفكر فيها».

- أنت صبرت كثيراً، فمن يعلم؟ قد ينجح الأمر مع بروك.
- أتظنينني أكفيه كامرأة؟
- رأيي هو أنك المرأة التي يبحث عنها. لذا، تصرفي بهدوء.
- هذا ليس سهلاً إذا كان الشخص عاشقاً وغير واثق من النتيجة.
- أتظنينني لا أعرف هذا؟ كل ما يمكنني قوله هو أنه إذا كنت تحبينه حقاً، فلا تيأسي.
- حتى لو كانت الظروف ضدي؟
- هل أنا على صواب في اعتقادي أنك محاربة جيدة، يا شيلي؟
- هذا ما أرجوه.

فابتسمت كريستين: «إذن، أقنعي بروك بأنه بحاجة إليك».

عندما نزلت شيلي في الصباح التالي لتتناول الفطور، قالت لها مديرة الفندق: «يولا في المدينة وفكرت في أنك ربما تريدين أن تعلمي».

كان الوقت قبل الظهر عندما رأت يولا مارتن، مديرة منزل «مولغاري» فنادتها: «يولا».

رفعت المرأة بصرها إليها فأشرقت ملامحها بابتسامة عريضة: «شيلي، يا عزيزتي، لم تعودي تزورينا؟».

- أنت نفسك لم تعودي تمكثين كثيراً في البيت.

وأسرعت إليها شيلي تحمل عنها بعض الأكياس فهمست لها يولا: «أرسلتني السيدة كينغزلي إلى هنا عندما رأتني أراقب الأمور. يبدو لي أنها لا تريدني أن أكون قريبة».

- ومن أحضرك إلى هنا؟
- أحد العمال. لا أفهم يا شيلي لماذا فعل السيد كينغزلي ما فعله، رغم أنه كان خبيثاً. السيدة متلهفة إلى أن تتخلص مني، كما لم أعد أحب البقاء في عملي الآن بعد أن استلمت هي البيت.

فقالت شيلي: «دعينا نتناول كوب شاي معاً».

قالت يولا: «هذا ما كنت أريده بالضبط».

ثم ألقت بقنبلتها: «كان عليّ أن أخبر بروك أنني أخذت نسخة عن تلك الوصية».

جمدت شيلي في مكانها. ما.... ذا؟ وأمسكت بذراع يولا: «أي واحدة؟».

نظرت إليها يولا ذاهلة: «تلك التي وقّعت عليها ذلك اليوم. كنت أتوقع أن يغيّر السيد كينغزلي كل شيء، لكن العجوز القاسي القلب لم يفعل. أتمنى ألاّ يدخل الجنة».

- هل أفهم يا يولا أنك تملكين نسخة عن الوصية التي وقعتها كشاهدة؟

ورغم احمرار خدّي يولا، إلا أنها قالت من دون خجل: «لا أشعر بالذنب أو بأنني ارتكبت خطأ. طلب مني المحامي أن أحضر مغلفاً كبيراً للوصية، ثم كتب عليه بخط سيء للغاية... وذهب إلى الردهة لكي يتحدث إلى السيدة كاترين التي بدت حزينة. عندئذ، قلت لنفسي بأن أتصرف. إن لدي حاسة سادسة. وبسرعة، أخذت المغلف إلى غرفة المكتب ونسخت الوصية على جهاز الفاكس».

حملقت شيلي فيها والآمال تتملكها: «ألم يرك أحد؟».

- لا، كانا مشغولين جداً بالحديث. كانا أشبه بلصّين، أنا لا أحبهما. إنه ثعلب حقيقي وهي فظيعة جداً.
- أنت ذكية للغاية، يا يولا.
- لا، أنا لست كذلك يا عزيزتي، إذ أصبحت أنسى كثيراً. عليّ أن أتحدث عن هذا مع الدكتورة سارة. أتعرفين ماذا يسمون هذا؟
- الحديث مع سارة لا يضرّ. لكنني واثقة من أنك لا تعانين من شيء. كلنا ننسى عندما نكبر في السن.
- أنت تكبرين في السن أيتها الحلوة الصغيرة؟ كم عمرك الآن؟ واحد وعشرون؟ ماذا يسمّون ذاك المرض؟
- أتعنين «الزهايمر» يا يولا؟ ذاكرة الناس تضعف كلما تقدموا

بالعمر، وهذا أمر طبيعي.

- هذا ما أرجوه، يا عزيزتي. لا أريد أن أنهي حياتي خرفة.

سألتها شيللي: «هل قرأت الوصية، يا يولا؟».

- وهل أفعل شيئاً كهذا، يا فتاتي؟

وأدارت عينيها لكن شيللي كانت أذكى من ذلك، فعادت تسألها: «هل فعلت ذلك؟».

- لم أجد وقتاً لذلك، يا عزيزتي. كما أنني لم أعثر على نظارتي، فأنا لا أرى شيئاً من دونها.

- هل وقّع المحامي على الوصية في حضورك؟

- طبعاً فعل. أليس هذا هو المفروض؟ أنا لست عالمة لكنني ذكية نوعاً ما.

وللحظات، سكتت شيللي ذاهلة ثم عادت تسأل: «وأين الوصية الآن؟ لا بد أنك قرأتها عند توقيعها. ماذا تقول الوصية عن الوريث؟ وعن عدم ذكر بروك؟».

- سأخبرك بشيء، يا حبيبتي، ولا أريدك أن تخبري أحداً آخر. لقد نسيت أين وضعتها. هذا ما يحصل دوماً، أخبيء الأشياء ثم أنسى مكانها.

فقالت شيللي بذعر: «لكن المنزل كبير جداً يا يولا. هل هو المكتب؟ هل وضعتها في كتاب؟».

- لا ... هذا قريب من الخطر إذ قد تُكتشف، ولكن لا تقلقي فسأعثر عليها. سأتذكر، فهذا ما يحدث دوماً في النهاية. ظننتني وضعتها في مزهرية خزفية لكنني لم أجدها. يمكنني أحياناً أن أتذكر أموراً فعلتها منذ خمسين عاماً، وأنسى الماضي القريب.

- لا تضغطي على نفسك. كوني هادئة وقومي بعملك المعتاد فتعود الأمور إلى ذاكرتك. لن تضيع، فهي في المنزل. فلنشرب الشاي الآن. هل تريدين شيئاً آخر؟ لكن من المهم جداً أن تخبري بروك.

٩ - قد تتحقق الأحلام

عاد فيليب من وايبورن وقد بدا مرتاحاً وواثقاً كما لم يعهده بروك من قبل، رغم أن التحضيرات كانت جارية لجنازة جده. من حسن الحظ أنّ الجنازة ستقتصر على الأقرباء.

وسيُدفن ريكس كينغزلي في الضريح الفخم الذي شيّده لابنه آرون، والد فيليب، بالرغم من أنه أعلن عن رغبته في أن يدفن في مقبرة «مولغاري» الخاصة.

لكن فيليب، وريث جده، قضى بأن يُدفن الأب مع الإبن. ولم يكن أحد قد اقترب من ذلك الضريح الفخم منذ دفن آرون فيه. أما أرملته فرانسيس فلم تزره قط كما لم يفعل فيليب، أو حتى جده ريكس كينغزلي.

سأله بروك متوتراً: «لم كل هذا الابتسام والزهو؟».

فأجاب فيليب: «أظنني، بعد وقت قصير، سأتمكّن من أن أقنع شيللي بالزواج. إن والديها بجانبي، وكذلك أماندا، يا لها من أنثى تحب المال».

بدت ملامح بروك فولاذية وهو يقول: «أنت تحلم».

- قد تتحقق الأحلام. ستأتي شيللي إلى هنا.

وأضاف فيليب بثقة مدهشة: «إنها ليست حمقاء فهي تعلم أنني سأقدم لها الكثير. إنها نقطة التحوّل في حياتنا كما أنها أصبحت شبه مغرمة بي الآن».

نظر بروك إليه بحدة: «أشعر بالأسف لأجلك يا فيليب فهذه العلاقة الغرامية الكبرى هي في ذهنك فقط».

فقال فيليب بعنف: «وما أدراك أنت؟ لقد غبت سنوات بينما نشأنا

أنا وشيللي معاً».

- كانت أسرتها تضغط عليها لتفعل ذلك، ألا ترى هذا مثيراً للتشمئزاز؟

ابتسم فيليب وكأن في الأمر ما يضحك: «نعم، لكن إذا كان هذا يساعدني، فالأمر لا يهمني. أنا أريد شيللي أكثر مما أريد أي شيء آخر في حياتي».

فقال بروك ساخراً: «ألن تغضب أمك؟».

حملق فيليب فيه: «بالله عليك، لا علاقة لأمي بالموضوع. أفكر في أن أطلب من شيللي أن تحضر جنازة جدي. ما زال الوقت مبكراً، لكنها ستقف بجانبي».

جاهد بروك للتحكم بغضبه: «ثمة شيء غريب فيك يا فيليب وهو أنك تستسلم للأوهام. من الصعب عليك أن تعيش مع الحقيقة. لقد خططت لكل شيء في ذهنك. ستتزوج شيللي لوغان وتحضرها إلى «مولغاري». لكن ثمة عقبة واحدة، وهي أن شيللي لن تفعل. إنها لا تحبك. واجه ذلك يا فيليب».

- بل ستفعل. إنها تحب أن تشغل بال الرجل. لكنني أشعر من أعماق قلبي بأنها تحبني حقاً.

- لا أستطيع أن أتصور السبب!

- لقد اعترفت بذلك. أنا أعلم أن هذا صعب عليك يا بروك. صعب أن تراني أملك كل ما أريد. لكنني أريد أن أساعدك.

فقال بروك بجمود: «وكيف ستساعدني بالضبط؟».

فكر فيليب قليلاً: «أنا لا أفكر في أن نكون شريكين ولكن بإمكاني أن أستخدمك، يا بروك. لديك مهارات لا أملكها. بعد دفن الجدّ، يمكننا أن نتوصّل إلى اتفاقية ما. لقد تلقيت معاملة غير عادلة، وبإمكاني أن أنصفك».

التمعت عينا بروك الفضيتان: «هل تظن حقاً أنني قبلت تلك

الوصية؟».

ابتسم فيليب وردّ: «حتى أنت يا بروك لن تستمتع بدخول المحكمة من أجل الوصية. كان جدي مريضاً للغاية، وتحت تأثير الأدوية المخدرة في معظم الوقت. إن توكيل محام يكلف مالاً كثيراً. وأنت يا بروك، لا تملك ذلك المقدار من المال. كما أنك لن ترغب في كشف فضائح الأسرة للجمهور. مع الوقت والنوايا الطيبة سنجد طريقاً للخروج من هذه المشكلة، وستقدم لنا جميعاً معروفاً إذا قبلت بإرادة جدنا بطيب خاطر».

- آسف يا فيليب، فهذا غير ممكن كما أنني لست بحاجة إلى نصيحتك. لقد أخبرني جدي بكل وضوح بأن عليّ أن أستلم زمام الأمور. لم يكن سعيداً معك لأنك لم تخلق لهذا العمل يا فيليب. أنا لا تهمني إرادة جدي بقدر ما يهمني الحصول على حقي. أخبرني... لماذا اخترت ذلك القبر الضخم الفظيع لدفنه؟ لقد أعرب جدنا عن رغبته في أن يدفن في مقبرة خاصة. إنك لا تطيع رغبته، وهذا واجبك.

فقال فيليب بوضوح وإخلاص: «لقد فكرت طويلاً في هذا الأمر يا بروك، وأنا آسف لأن الفكرة لم تعجبك، ولكن ذلك المكان هو حيث يجب أن يكون... مع ابنه. مع أبي».

- ليس مع زوجته؟ جدتنا؟ إنها في المقبرة.

فقال فيليب وقد تغلب عليه الشعور بالعار الممزوج بالمرارة: «لكن عمتي كاترين مدفونة في إيرلندا. لم يصفح عنك جدي قط».

أخذ قلب بروك يخفق بسرعة. لعل هذا صحيح! وسأل: «هل أخبرك بهذا بنفسه؟».

فقال فيليب كاذباً: «ولمَ لا؟ لقد تحدثنا كثيراً في هذا الشأن. مكان جدي الحقيقي هو القبر الذي دُفن فيه أبي. أسرة كأسرتنا تحتاج إلى مركز».

قال بروك وهو يلوّح بيديه اشمئزازاً: «كلام فارغ. أسرة كأسرتنا تحتاج إلى أن يدخل إليها الضوء والهواء النقي».

فهتف فيليب بانتصار: «بالضبط. لهذا السبب سأتزوج شيللي لوغان».

وأخيراً وجد بروك شيللي في مطعم هاربيت كرومبتون. رأى من خلال النافذة، شيللي وهاربيت جالستين إلى مائدة ومنكبتين على محفظة جلدية تحتوي على ما بدا له أنها رسوم شيللي.

ما إن قرع الباب حتى رفعت المرأتان بصرهما وقد بدت على ملامحهما الدهشة والسرور. سارت هاربيت إلى الباب تفتحه، وسألته وقد لاحظت مزاجه: «ما الذي جاء بك إلى المدينة، يا بروك؟».

كانت عيناه لامعتين، لكن عاصفة ما تتجمع فيهما. عندما تكلم، لم يفصح صوته عن شيء: «هنا أحسن من «مولغاري» يا هاربيت».

وبعد أن صمت لحظة، أردف: «أريد أن أتحدث قليلاً مع شيللي».

لاحظت شيللي أيضاً انزعاجه فسألته وقد تملّكها القلق: «هل كل شيء على ما يرام، يا بروك؟».

- نعم، حالما أجد مكاناً أعيش فيه. هل هذه رسومك يا شيللي؟ يسرني جداً أن أراها.

فقالت هاربيت: «أنظر إليها. شيللي شابة موهوبة للغاية. حتى وهي صبيّة صغيرة كانت أفضل مني في الرسم».

سحب بروك كرسياً جلس عليه وأخذ يتأمل الرسوم، ويقلبها بصمت، شاعراً بأنه دخل إلى حديقة صحراوية بعد المطر. إنه يعرف كل تلك الأزهار البرية، إنه يعرف هذه الطيور الرائعة. لم تكن هذه مجرد رسوم جميلة، بل واقعية رسمت بدقة عالم نباتات. أزهار بالغة الرقة والاتقان كلها كانت رائعة... حتى كاد يشم عبيرها.

حدّق إليها وقال: «إنني بحاجة إلى وقت لدراستها، فهي رائعة. إذا وضعت في إطارات فستبدو أروع. ثمة مجموعة كاملة من الطيور الإسترالية لجون غولد في منزلنا في «مولغاري»، فهل رأيتها يوماً؟».

هزّت رأسها نفياً، غير قادرة على إخفاء سرورها لمديحه: «لا، لكنني

أودّ ذلك. لقد وضع غولد كتباً عن الطيور في كل أنحاء العالم».

- أتعنين أنّ فيليب، الذي يظن أنك على وشك أن تتزوجيه، لم يرك إياها قط؟ هذا أمر غير عادي أبداً، بالنسبة إلى موهبتك واهتماماتك.

- فيليب، الذي ليس على وشك أن يتزوجني يا بروك، غير مهتم بهوايتي. إنها، بالنسبة إليه، مجرد صور جميلة... نوع من الهوايات التي تحب النساء ممارستها.

فقال بروك مخاطباً هاربيت وكأن شيللي غير موجودة: «إنها جيدة جداً، أنظري إلى هذه التفاصيل الرائعة لهذه الزهرة. ماذا سنفعل بالنسبة إليها؟».

فقالت المرأة مستحسنة اهتمامه وتقديره: «أن تُعرض كخطوة أولى».

وإذا بشيللي تدهشهما بقولها: «ومن يدري أين أكون؟».

فقال وهو يتحرك في كرسيه: «وما معنى قولك هذا؟».

كان لا يزال يشعر بالضيق من حديثه مع ابن خاله. من المؤكد أن شيللي أظهرت عطفاً كبيراً على فيليب، فهل أقنعوها بالزواج منه؟ أو أرغموها مستعملين قوة حبها لأسرتها؟ ثمة أمور غريبة تحدث في الحياة.

فقالت: «هذا لا يهم حالياً. حضورك لتبحث عني أشبه بمعجزة، يا بروك. كنت متلهفة للاتصال بك، وقد اتصلت «بمولغاري». لكن سوء حظي جعل والدة فيليب تجيب. قالت إنك لست هنا ثم أقفلت الخط».

فقالت هاربيت: «ما أجمل هذا، لماذا لا تتناولان القهوة؟ سأحضّرها لكما. سأترككما وحدكما كما أظنكما تفضلان».

وقف بروك، فجأة، واضعاً يديه في جيبه: «شكراً يا هاربيت، هل من الممكن حجز طاولة هادئة لي لهذه الليلة؟ سأبقى في المدينة».

- وشيللي أيضاً، مائدة لكما معاً؟

وأقفلت محفظة رسوم شيللي وكأنها لا تريد مفارقتها، بينما نظرت شيللي إلى بروك الذي بدا متوتراً للغاية ثم سألته: «هل أنت موافق يا بروك؟».

- طبعاً موافق. السابعة والنصف؟

- دع الأمر لي.

* * *

خرجا معاً، وكان الشارع الرئيسي يعجّ بالناس، والعربات التي تعرض كافة أنواع السلع والفاكهة والأزهار والنباتات والخضر.

قال بروك متململاً: «فلنأخذ بعض الشطائر ونذهب في جولة بالسيارة. يبدو أن لدينا أمور كثيرة نناقشها. أيّ نوع من الشطائر تحبين؟».

- أي شيء. دجاج، لحم.

أزاح شعره الأسود عن جبينه: «أسرعت في القيادة، ولم أشأ أن أتسوّل منه الهيلوكوبتر. لقد كبر فيليب كثيراً منذ سمعنا البشارة واحتل مركز سيد «مولغاري».

فقالت وهي ينتظر إليه بحماسة: «حسناً، لدي خبر لك».

بالكاد سمعها لأن ذراعيه امتدتا لتجذباها إلى الخلف بعيداً عن صبي مسرع على دراجته ثم نظر إليها: «هل هو خبر جيد؟».

- إنه ليس عني وعن فيليب، إذا كان هذا ما تعنيه بتصرفك الغاضب هذا.

- لأن الأحمق اللعين جاد جداً من ناحيتك.

- كيف تصدق لحظة أنني قد أبادله الشعور؟

- لن نتشاجر على الرصيف. انتظري هنا ريثما أذهب وأحضر شيئاً لنأكله، ثم يمكننا أن نتشاجر.

* * *

بعد عشرين دقيقة عثرا على مكان معزول بجانب البحيرة التي حوّلها انحباس المطر وحرارة الجوّ إلى بحيرات صغيرة تحيط بها الرمال. في فصل الأمطار، تتحوّل البحيرة إلى موطن لآلاف الطيور الرحالة، لكنها الآن ساكنة وعميقة.

كان الاثنان صامتين يحاولان أن يكبحا مشاعرهما.. الثائرة.

أوقف بروك السيارة في ظل شجرة صمغ رائعة وفتح بابه: «لدي بساط، وبهذا يمكننا أن نذهب إلى هناك».

وأشار إلى مكان مظلل بارد يمتد من الرمال إلى الأشجار.

- هذا حسن.

قال عندما جلسا على البساط وفتحا كيس الشطائر: «والآن، أخبريني».

- لن تصدق أبداً ما سأقوله.

- شيللي، في هذه المرحلة، أنا مستعد لأن أصدق أيّ شيء.

- يولا في المدينة.

- عظيم، حدثيني بشيء لا أعرفه.

وأخذت عيناه تتأملانها وقد تملكته مشاعر حيرته. لقد أغوته، وسحرته. لا سبيل لأن يأخذها فيليب منه.

سألته متوترة: «لماذا تنظر إليّ بهذا الشكل؟».

- لقد أمضيت صباحاً مرهقاً، اضطررت فيه إلى الإصغاء إلى أوهام فيليب.

- أرجو ألاّ تكون عني، فيليب وأوهامه يشعرانني بالغثيان. إنه يعتبر أن موت جده إشارة ليفعل ما يريد. أعلم أنك متكدر، ولكن خفف عنك. عليك أن تصغي إلى ما سأقوله. لقد تحدثنا، أنا ويولا طويلاً.

- والآن، هذا تغيير حقيقي. ما الذي يجعلني أهتم بيولا في هذه اللحظة؟

- لا بأس. إذا لم تشأ أن تصغي...

ووقفت ساخطة متحمسة، تريد أن تغسل وجهها المتوهج بالماء البارد، لكن بروك طوّق كاحلها بأصابعه وقال: «آسف يا حبيبتي. عودي إلى الجلوس. عليّ حقاً أن أمسك لساني. هل يولا في المدينة...».

كان يواضيها ولكن تلك النبرة الساخرة لم تغب عن صوته. تنهدت

www.elromancia.com

وهي ترى أنّ أقل لمسة منه ترسل الرعشة في كيانها، ثم عادت فجلست.

قالت والأمل في وجهها: «أخذت يولا نسخة من الوصية الثانية. كان جيرالد متيلاند قد طلب منها أن تحضر له مغلفاً كبير الحجم، عندئذ قررت أن تتصرف. وفيما كان المحامي ووالدة فيليب مستغرقين في الحديث، أسرعت يولا إلى المكتب ونسخت الوصية على جهاز الفاكس».

رفع بروك ذراعيه إلى السماء: «يا لها من فكرة رائعة. المشكلة الوحيدة هي أن الوصية اللعينة لم تكن موقّعة».

فقالت بحدة: «لا تصدّق ذلك، فقد أقسمت يولا على أن الوصية كانت موقعة. إنها ليست حمقاء وقد قالت إنها شهدت على توقيع جدك».

استرعى قولها هذا انتباهه، فحدّق إليها وقد فارقته السخرية: «لماذا لم تظهر هذه الوصية؟ لماذا لم تتحدث يولا عنها؟ هل قرأتها؟ وأين هي بحق الله؟».

وقطب جبينه وهو يفكر في جده. لم تجب شيللي على الفور بل أزاحت خصلة من شعرها عن وجهها، ثم أجابت: «لم تقرأها يا بروك. لم يكن لديها وقت فخبأتها كيلا يراها أحد. الأمر الوحيد...».

فزجر قائلاً: «لا تخبريني أنها لا تعرف أين خبأتها».

فقالت شيللي وقد أدركت أنه يعرف عن يولا أكثر مما تعرف بكثير: «إنها في مكان في المنزل، يا بروك».

فقال بشيء من اللطف: «يا أعز فتاة، هذا أشبه بالبحث عن إبرة في كومة من التبن».

فقالت: «أراهن على أن لديها الكثير لتخبرنا به».

- هذا إذا اكتشفنا أين وضعتها، دعينا ندعو الله.

وشبك يديه وأخذ يتمتم بالدعاء لحظات قال بعدها: «شيللي... ما معنى هذا برأيك؟».

- معناه أن محامي جدك كان يكذب. ويا لها من غلطة كبرى لمحام... فيليب وأمه، وإذا كانت عشيقته...

فقال بحقد: «وهي عشيقته».

- فهي شريكته في هذا. إنهما مذنبان.

فقال عابساً: «يبدو أن الناس قد يفعلون أي شيء من أجل المال».

- لا أظن أن فيليب مشترك في أي خطة.

- ها أنت تدافعين عن ذاك النغل مرة أخرى.

- سيكون عليّ أن أطلب منك أن تغسل فمك بالصابون. صدق أو لا تصدق، هذا ما قاله لي أبي أمس بالذات.

- شيللي، عليك أن تجدي القوة للهرب من أسرتك.

- وماذا عنك؟ وضعك أسوأ من وضعي.

- هذا صحيح. هل من الممكن أن ترغمك أسرتك على الزواج من فيليب مستغلين وفاءك لهم؟

- أبداً. أظن أنّ عليّ أن أقوم برحلة لتصفية ذهني، وقد أكتسب بعض المال. أتتذكر الأسطورة حول «كنز كلايرون؟».

- ومن لا يعرفها؟ لا تخبريني أنك عثرت عليه!

- وجده ميتش وكيل ماكوين. أخبرتني كريستين بذلك. وهي زوجة ميتش الآن.

- نعم، أعرف هذا. لطالما كانا متلائمين. ولكن ما شأن هذا بك؟

- أنا من أعطاهم حل اللغز. لقد فسّرت ما رأيته على الخريطة القديمة. لقد وجدوا الكنز مدفوناً في «جدول السلاحف». إنه ذهب، يا بروك... ذهب، وسيعطونني مكافأة. إن أصدقائي مصرون على ذلك.

جمد لحظة يحدق إليها: «أنت تحققين المعجزات. وتلك قصة عجيبة. أعرف أن جدي كان يؤمن بقصة «كنز كلايرون»، وكان يقوي إيماننا بالأساطير القديمة».

- نعم، هذا صحيح.

- ماذا ستكون الجائزة برأيك؟

- مهما كانت، يسعدني الحصول عليها.

واستلقت على ظهرها وأخذت تحدق إلى السماء الزرقاء البادية من خلال الأشجار. كان الحرّ مرهقاً فرفعت يديها إلى صدغيها المبلّلين بالعرق: «أحب أن أسبح».

كانت الحرارة تسري في دمها، وشعورها نحوه مدّمراً . . . يبعث على الذعر.

بروك . . ! بروك الذي لا يُنسى.

أمسك بمعصميها وقال: «لماذا لا نسبح؟».

- ليس لدينا ملابس سباحة.

سرى بينهما توتر وضحك: «أنظري إلى تلك المياه المتألقة كم هي مغرية. اعتدت أن أغطس فيها وأنا صبي. يمكننا أن نسبح بملابسنا فأنا لا أرغب في ترك هذه اللحظات السحرية تذهب سدى. فلنذهب».

رأى ترددها: «بروك!».

فأخذ يلامس وجهها الساخن: «لماذا أنت مترددة؟».

شعرت بأنها مشوّشة، ومتحمّسة في آن معاً.

ابتسم، وعاد يحثّها: «هيا بنا».

وشدّها فوقفت: «سنبلل ثيابنا».

- ستجف من الحرّ.

فتنفست بحدة: «لا بأس، امنحني دقيقة».

ألقى عليها نظرة تقييم أشعلت النار في دمها: «لا بأس».

وشعرت بنفسها تهوي. . . تهوي في الحب وكأنها تهوي في الفضاء.

١٠ - زمن المعجزات

تقدّمها بروك خائضاً في المياه الضحلة حتى وصل إلى الناحية الأخرى.

- تعالي بسرعة!

كانت شيللي لا تزال واقفة حيث تركها تحت الأشجار، وكأنها شخص أثيري في ثوبها الأصفر الرقيق الفضفاض. ربما إذا فرك عينيه ستختفي وسيعود وحيداً مرة أخرى، وحيداً بقية حياته. لم يبد له غريباً أن يقع في حبها. ربما هذه هي قصة الحب بأكملها.

راحت تتحرك بسرعة راكضة على الرمال حافية القدمين، والماء يبللها، غير مهتمة بتنورتها الطويلة التي ستنشف بسرعة في حرارة الجوّ. لم تنظر إليه أبداً لكنه كان يعلم أنها تشعر بمشاعر قوية نحوه.

جعلت شيللي حواسه تدور. شعرت وكأنه ينظر إلى صورة مرسومة دبّت فيها الحياة. شعرها الأحمر استرسل على ظهرها وتطايرت خصلاته حول وجهها، فيما رفعت أطراف تنورتها، ثم رفعت رأسها واندفعت إلى المياه.

نادت، والضوء الوهاج حولها كالهالة: «إننا مجنونان».

خطر له أنه مجنون فعلاً، مجنون بشيللي. استغرق وصوله إليها ثوان معدودات، كانت فيها أشعة الشمس تلتمع على جسمه.

رأته قادماً نحوها برجولته الرائعة وقوته الأخاذة فشعرت بقلبها يخفق بسرعة. إنها تعبد هذا الرجل. جعلتها هذه الفكرة تغوص تحت الماء لتتنفس ولم تصعد إلاّ بعد أن أصبح بجانبها.

www.elromancia.com

- ها قد أمسكتك!

وجذبها إليه شاعراً ببهجة اصطدام جسدها بجسده: «بماذا تشعرين؟ هل أضايقك بشيء؟».

همست وعيناها على وجهه: «نعم!».

كانت أهدابه السوداء الكثيفة مبللة بالماء، فمدت يدها تمسحها برقة، ولم تدهش حين عانقها بعنف.

كان هذا جديداً عليها... جديداً وآسراً، ومع ذلك محفوفاً بالخطر. لم تشعر يوماً كما تشعر الآن، فهي ليست على حالها على الإطلاق. سبحا قليلاً، وتراشقا بالمياه قبل أن يعودا إلى احتضان بعضهما البعض.

وبعد أن تعبا من السباحة، استسلمت شيللي إلى النوم آمنة بين ذراعي حبيبها. شعرت بالهدوء وهو يحتضنها بحنان، ماراً بيده على شعرها. وفي خلال ثوان، استسلمت لأحلامها.

بدا ما يحيط بها مألوفاً، فقد عادت طفلة في السادسة في حديقة منزلهم في «وايبورن». كانت تمسك بيد سين محاولة أن تواسيه لأنه يشعر بغثيان. كانا يجدّان في السير خلف أماندا محاولين البقاء قربها. وكانت أماندا غاضبة لسبب ما، فلم تشأ أن تهتم بهما. فهي لم تفعل ذلك قط.

علمت شيللي أن هذا عالم غير حقيقي. كان سين يبكي بحرارة، فوقفت ووضعت ذراعيها حوله تحتضنه، محاولة أن تواسيه. كانت أمها تقول دوماً إنها التوأم الأقوى، لأنها من جاءت أولاً إلى العالم.

كانت جهودها تنجح عادة، إنما ليس الآن. كان الجوّ حاراً للغاية رغم القبعة العريضة التي كان يضعها كل منهما على رأسه. كانت الشمس تحرقهما فيما أماندا تسير بسرعة كبيرة، موسعة المسافة بينها وبينهما. لم يعودا طفلين صغيرين، لكن ألا تفهم أماندا أن عليها ألاّ تدعهما يغيبان عن نظرها؟

قالت لها الأم وهي تضحك للتوأمين الغاليين: «لا تدعيهما دقيقة واحدة يا أماندا».

- نعم، نعم، يا أمي!

لطالما كانت أماندا عديمة الصبر. كانت تقول إن أمها لا تفكر إلا بالتوأمين، ولا تفكر بها أبداً.

صرخت شيللي: «قفي يا أماندا، سين يشعر بالغثيان. أرجوك يا أماندا، أماندا!».

راح صراخها يبدو مذعوراً، فيما أخذ سين يشهق وأصبح خداه حمراوين للغاية. توقعت أن تقف أماندا وتلتفت إليهما لكنها بقيت تسير ولم تلتفت رغم صراخها.

وإذا بسين، الذين كان متكدراً للغاية، يفلت منها قائلاً إنه يريد أن يذهب إلى البيت. فطلبت منه أن يبقى حيث هو ريثما تذهب لتحضر أماندا.

وكان سين يسعل بشدة ووجهه ينضح بالعرق فقال لها: «أنا لا أحب أماندا. أحبك أنت فقط».

وسمح لها بأن تجلسه على الأرض في بقعة مظللة، ثم أدار لها خده عندما انحنت لتقبله وتقول له: «أنظر إليّ كم أنا سريعة في الركض».

حاولت أن تجعله يضحك لكنه لم يضحك. وتساءلت شيللي عما يجعل أماندا بهذه القسوة.

تمتم سين: «أريد أن أذهب إلى البيت».

- سنذهب، أعدك، إبق مكانك.

وفي منتصف الطريق تقريباً، وقفت وقد تملكها خوف وقلق، وشعور فظيع بحدوث خطب ما.

وعندما عادت إلى سين كان قد اختفى.

* * *

مزقت صرختها قلبه.. كانت مليئة بحزن هائل ورعب لا مثيل له.

- شيللي!

ضمها إليه بشدة، لكنها أخذت تقاوم وتقاوم، وعندما فتحت عينيها

لم تكن على حالها.

- كان هذا حلماً فقط، أنت آمنة. صرختك كادت توقف دقات قلبي.

وأخذ يزيح خصلات شعرها عن عينيها، فيما حاولت أن تتمالك نفسها لكن قلبها راح ينبض بعنف آلمها.

قال لها وهو يرى مدى انزعاجها: «إرتاحي قليلاً».

وبعد حين، قالت: «سين، كنت أحلم سين».

أدارها بين ذراعيه وهو يتذكر أحلامه المزعجة للغاية: «لم أستطع قط أن أتذكر ذلك اليوم بوضوح. أتذكر فقط صراخ أمي. كل شيء كان محاطاً بالغموض. قالت أماندا إنني دفعته فوقع في البركة».

ثار لهذا، وتوتر فكه: «أختك قاسية، أراهن بحياتي على أنك لم تفعلي شيئاً كهذا».

- لم أفعل. أنا أتذكر الآن. كان سين يشعر بالغثيان، وقد ابتعدت أماندا عنا، فهي لم تشأ أن تزعج نفسها بنا، طلبت من سين أن ينتظر ريثما أركض إليها وأحضرها. أراد هو أن يذهب إلى البيت، كان ينبغي أن آخذه حينذاك، لكن أمي قالت إن علينا أن نبقى مع أماندا. ركضت إليها، لكنني حين التفت إلى سين وجدت أنه اختفى. لم أفكر قط في الماء. كان بإمكاني أن أسبح لكنه لم يكن يسبح، والجو كان شديد الحرارة.

أثناء حديثها أخذت الدموع تسيل على وجهها، فقال وهو يشدّد من احتضانها: «أفرغي ما بنفسك».

فقالت بألم بالغ جعل عينيه تدمعان: «لقد مات سين. ولم يكن حادثاً عرضياً. أنا وأماندا تركنا سين يغرق».

- أبداً يا شيللي، الله هو الذي أراده في جنته.

* * *

أصرت يولا على العودة مع بروك في سيارته بدلاً من انتظار

الهيلوكوبتر. ورغم أن بروك حاول أن يقنعها بأنّ سفرها معه مرهق لها، إلا أنها أصرت على مرافقته في أي يوم يريد.

في المقهى، أخذوا يناقشون ما حدث في آخر يوم في حياة ريكس كينغزلي. لكن يولا لم تستطع ان تتذكر أين وضعت الوصية.

- يمكنني أن أقسم أني وضعتها في الفاز الخزفي الكبير. لكنني لم أجدها هناك.

فقالت شيللي بذعر: هل تم العثور عليها؟ إذا عثرت عليها أم فيليب، فستحرقها».

وقالت يولا بإصرار: «لقد وقّع عليها السيد كينغزلي. لعلي لا أعلم ما في الوصية، لكنني رأيت التوقيع. وإذا قال المحامي إن السيد لم يوقع فهو كاذب. لكن من يصدق عجوزاً حمقاء مثلي ضده، هو المحامي الشهير؟».

إذاً، ما هم بحاجة إليه الآن هو معجزة.

* * *

في «مولغاري»، وجد بروك المنزل في حالة اضطراب وفوضى، لأن مفتاح باب الضريح الفخم مفقود فيما موعد الدفن في صباح اليوم التالي.

نصحهم بروك: «أطلقوا الرصاص على القفل اللعين».

فقال فيليب بعجز: «قد نضطر إلى ذلك. لا أدري ما حدث للمفتاح، فهو أكبر حجماً من أن يضيع. لم أر المفتاح منذ سنوات، وقد تعرف يولا مكانه».

لكن يولا لم تكن تعرف، وبقيت مشغولة جداً بلعن نفسها لعدم تذكرها.

- لقد رأيت شيللي في المدينة، فهل هي بخير؟

حاول فيليب أن يلفت انتباه ابن عمته، لكن بروك بدا عابساً ومن الصعب التحدث إليه.

قال بروك يواجهه: «ولمَ لا تكون بخير؟».

فقال فيليب: «ثمة شيء ما يحدث. اتصلت بالمنزل وتحدثت إلى أماندا.

يا إلهي، أنا لا أستسيغها. ما الذي تفعله شيللي في المدينة؟».

- لعلها غاضبة من أسرتها.

- أريدها في الجنازة.

- وأنا لا أريدها. دعها وشأنها.

- أنت كثير التذمر، أليس كذلك؟

- كثير التذمر؟ ما الذي تتحدث عنه؟

- أتحدث عن مزاجك. أنت شخص مزاجي للغاية.

نظر بروك إلى فيليب بازدراء: «ألا تظن أن ثمة سبب لذلك؟ يا إلهي، أنت غبي».

- لا حاجة إلى أن تشتم.

- إخرس يا فيليب، بحق الله، إذا لم تستطيعوا العثور على المفتاح فعلينا أن نطلق الرصاص على القفل.

* * *

وفي النهاية، اضطر بروك لأن يفعل ذلك. وكان فيليب قلقاً للغاية من فكرة تدنيس قدسية الضريح. كان الشابان في حالة كآبة وظلال الموت تحدق بهما.

بعد أن فتحا الباب الكبير، تراجع بروك إلى الخلف وكأنه لا يحتمل الدخول: «سأنتظر هنا».

كان فيليب قد توقف هو أيضاً فقال: «أدخل معي، أرجوك. إنه مكان مخيف للغاية».

فقال بروك ساخراً: «إنها فكرتك أنت، أنت تعلم جيداً ما أوصى به جدك. أظنه أخفى المفتاح عمداً، لم يشأ أن يأتي أحد إلى هنا».

- ما كان لأحد أن يأتي إلى هنا لولا موته.

كان ضريح آرون المزخرف مبنياً من الرخام الأبيض ما عكس بعض الضوء على الداخل المظلم.

قال فيليب والصدى يعيد كلماته: «علينا أن نتلو صلاة».

- قلها أنت، فهي لن تنفع أباك الآن.

فقال فيليب وهو يئن: «هذا المكان يخيفني، رائحته وكأنه مقفل منذ ألف سنة. أتظن أن الشعور بالذنب هو الذي جعل الجد يبنيه؟ فهو لم يعامل أبي جيداً قط، أو أياً منا».

ونظر إلى ابن عمته لكن هذا لم يجب. لماذا؟

بروك الذي تقدم إلى الأمام، كان راكعاً على ركبتيه، يحدق إلى شيء ما خلف قبر آرون كينغزلي.

- كلا...

صدر هذا الصوت عنه معذّباً للغاية ما جعل فيليب يشعر وكأن دلواً من المياه انسكب على ظهره.

- بروك... ما هذا؟

كاد فيليب ينهار من الصدمة لكنه تمالك نفسه وسار متعثراً إلى جانب ابن عمته، رغم أن بروك التفت إليه وصرخ محذراً.

لقد أدرك الإثنان بالغريزة هوية صاحب هذا الهيكل العظمي. كما أدركا من تسبب بهذا الثقب في جمجمة الهيكل العظمي.

استدار فيليب هارباً والرعب في وجهه، وما كاد يخرج من المكان حتى أخذ يتقيأ. أي شيطان كان هذا الجد؟

في الداخل، كان بروك مغمض العينين يتلو صلاة امتنع عن تلاوتها نصف حياته. كان هذا أباه. وعادت به الذاكرة إلى حين كان صبياً تنهمر الدموع من عينيه. أبوه لم يهجرهما بل كان هنا طوال الوقت.

تحول الرعب في كيان فيليب إلى قلق بالغ، فقال بوجه شاحب وهو ينظر بخشية باتجاه المنزل: «ماذا سنفعل؟ لا بد أنه أبوك».

فأجاب بروك وهو يضغط على صدغيه: «لا يمكن أن يكون أي شخص آخر. حتى لو لم يكن يلبس هذه الميدالية حول رقبته، لعرفته. أمي جعلته يلبسها لتحفظه. فليرسله الله إلى جهنم!».

وصدرت عنه ضحكة قصيرة متجهمة ارتجف لها فيليب. كان الإثنان

يعرفان من يتمنى أن يرسله الله إلى جهنم.

جلس الشابان وقد تملكتهما صدمة، على الدرجات الحجرية التي تؤدي إلى الضريح بعد أن أغلقا بابه بإحكام.

هز فيليب رأسه بيأس: «لا يمكنني العثور على كلمات أعبر بها عن أسفي، يا بروك. إنني آسف جداً. ما من سبيل لكي أعوّضك عما حدث. علينا ببساطة أن ننسى هذا. إننا من أسرة ملعونة».

فأجاب بروك بخيبة أمل: «هذا ما يبدو».

- ماذا سيحدث حين نعلن هذا الأمر؟ لا أحتمل أن أخبر أمي، حتى أني لا أثق بها. وأكره أن يعلم متيلاند بهذا. إن أسرتنا ستتضرر للغاية وكذلك اسمنا.

فقال بروك محاولاً أن يركز على الأحداث: «بل اسم أحد أعضاء الأسرة. امنحني وقتاً للتفكير في هذا الأمر. لقد مات كينغزلي الآن فلن تطاله العدالة، ولكن ثمة أمر واحد أريد أن أوضحه. لن تضعه في هذا الضريح الفخم، ويمكنك أن تخبر أمك أنك غيّرت رأيك».

- كما تشاء يا بروك، سأفعل كل ما تريده مهما يكن. لا أريده أن يبقى هنا مع أبي المسكين.

- ألا تريد أن تخبر أحداً بهذا؟

- يا إلهي، كلا. ولماذا أفعل؟ هذا إثم. كما أنني لا أريد «مولغاري». يمكنك أن تأخذها. سأتنازل لك عنها قانونياً.

فقال بروك بصوت فاتر: «أنا لا أريدها بل أودّ أن أحرق هذا المكان اللعين بأكمله».

- وسأساعدك. يمكننا أن نبيع إنتاجها، يمكنك أن تتولى هذا الأمر، فأنت أذكى مني. لطالما كنت كذلك وستبقى على الدوام. وفي ما يتعلق بي، يمكننا أن نقسم الأرباح بيننا مناصفة. هذا أشدّ ما يثير الإشمئزاز. لا بد أن جدنا كان يظن نفسه إلهاً. لماذا فعل ذلك؟ هذا أمر لا يمكن تصديقه.

لكن بروك رأى الأمور بوضوح تام: «إنها الغيرة. لقد دمرته الغيرة. لم يكن كينغزلي يحب في حياته سوى شخص واحد هو أمي. وعندما خانته بالزواج من أبي من دون موافقته، أصبح مصير أبي محتوماً. وقد تطلب الأمر من كينغزلي سنوات معدودات فقط».

- يا له من أمر مخيف! عليّ أن أوقف طقوس الجنازة غداً، وما كنت أنوي فعله. سامحني يا بروك، فأنا أعلم أن ما سأسأله يتعلق بأمر حساس، لكن ماذا سنفعل برفات أبيك؟

- يجب أن يُدفن بشكل صحيح.

وفكر بروك في أنه قد يفعل هذا سراً. إنه بحاجة إلى وقت للتفكير.

- وأبي أيضاً، لماذا لا نهدم هذا الضريح المخيف؟ فالكل يكرهه.

ووقف فيليب وهو يرتجف.

- إذا شئت رأيي، فافعل هذا الآن. لكن علينا أولاً أن نقوم بترتيب الأمور. أما بالنسبة إلى كينغزلي، فقد قررت لتوّي. يجب أن نحرق جثته وأن نرسله بعيداً عن هنا، ونلغي الجنازة. لا أريده على هذه الأرض.

* * *

- ماذا تقول يا فيليب؟ ما من جنازة؟

حملقت فرانسيس كينغزلي في ابنها بذهول.

- أنا وبروك فكرنا في الأمر وقررنا أن نحرق جثمان جدي. سنرسله بعيداً.

بدت على فرانسيس الصدمة: «منذ متى تتفقان، أنت وبروك، على أي شيء؟».

فقال بروك يقنعها: «دعي هذا يحدث يا فرانسيس. لقد أجرينا الترتيبات لذلك. نحن لا نريده أن يُدفن في «مولغاري».

قالت فرانسيس محاولة أن تخمد ذكرياتها الفظيعة عن والد زوجها: «لكن هذا بيته، كان بيته. أنا لم أوافق قط على فكرة إنشاء ضريح فخم، كما تعلمان جيداً، إنه مكان مخيف. إن فيليب هو الذي يقرر يا بروك.

فيليب هو الوريث».

فقال بروك: «عليك أن تثبتي ذلك أولاً. لديّ شكوك كثيرة. ويولا واضحة جداً في نقطة واحدة، فقد رأت توقيع كينغزلي. انتظري يا فرانسيس».

قال جملته الأخيرة رافعاً يده عندما رأى المرأة تسرع للانكار ثم أردف: «يولا ليست غبية. إنها طريقتك في التقليل من شأن الناس. لقد أحضراها لتشهد على توقيعه وهذا ما فعلته. وستقسم بالله على ذلك».

قال فيليب وهو لا يزال شاحباً: «لا أريدها أن تفعل هذا، على أي حال».

وتابع يقول: «أنا لم أُخلق لأكون رئيساً، وأنت تعلمين هذا يا أمي. كل ما أريده هو شيللي. إذا أخذت شيللي فلا أريد أي شيء آخر».

صرخت أمه وقد جعل الإحباط وخيبة الأمل من ابنها وجهها يبدو دميماً بشعاً: «لكنها مغرمة بابن عمتك بجنون، أيها الأحمق».

التفت فيليب بسرعة إلى بروك وفي عينيه هزيمة غريبة: «هذا غير صحيح، أليس كذلك يا بروك؟».

فأجاب بروك باختصار: «لماذا لا تسألها؟».

فقالت الأم لابنها غاضبة: «أرأيت؟ لقد حذرتك. لقد أخذ فتاتك».

فقال فيليب: «أريد أن أسمع هذا من شيللي نفسها».

فقال بروك: «افعل. ويمكنك يا فرانسيس أن تخبري حبيبك بأن يحزم أمتعته، فستكونان بحاجة إلى محامٍ ماهر للغاية».

* * *

كانت شيللي قد وصلت لتوّها إلى منزل أسرتها في وايبورن، عندما اتصل بها بروك ليخبرها أنه قادم. قال أبوها مشككاً: «لماذا هو قادم إلى هنا؟ من الأفضل أن توضحي السبب. من المفترض أن يأتي فيليب».

فهزت شيللي رأسها: «أبي، عليك أن تكفّ عن إرغامي على الزواج من فيليب. لعل هذا خيارك، لكنه ليس خياري أبداً. لقد تعبت من

السعي لإسعادكم. بقيت طوال حياتي أفعل هذا من دون نجاح».

وقف أبوها مشرفاً عليها: «كل ما نريده لك هو السعادة يا شيللي. ظننتك ذهبت إلى المدينة لتفكري في هذا الأمر، وتستعيدي هدوءك».

- وقد فعلت ذلك. أنا لا أحب فيليب، كنت أعطف عليه بسبب معاملة جده له. إن بروك هو الذي يعنيني أكثر.

كانت تريد أن تقول إن بروك هو كل شيء بالنسبة إليها لكنها خافت من غضب أبيها.

ابتعد أبوها وهو يضحك وكأنها نطقت بمزحة سخيفة: «آسف، لكني فهمت أنه لا يملك قرشاً واحداً».

فأجابت: «أنت تهينني يا أبي. المال لا يهمني».

- هذا لأنك فتاة عاطفية حمقاء. الكرة بين يديك لكنك تلقين بها. حسب ما أتذكر، بروك تايسون جعل كل الفتيات يقعن في غرامه. لماذا تظنينه جاداً معك؟ كل الاحتمالات تقول إنه كأبيه، لقد هجر تايسون زوجته وولده.

- من الأجدر أن تقول فُقد. كان ريكس كينغزلي رجلاً متوحشاً. وأنا واثقة من أنه فعل بوالد بروك شيئاً لن نعرف أبداً ماهيته.

والتفتت بارتياح عند سماع صوت محرك الهيلوكوبتر: «هذا بروك».

قال متحدياً: «وماذا ستفعلين؟».

فأجابت ببساطة: «أي شيء يطلبه مني».

فقال هادراً: «أنت تقيمين هنا، يا آنسة. ولم أفقد الحق في أن أملي عليك ما عليك أن تفعليه. هذا بيتي، وما دمت تسكنين فيه عليك أن تفعلي ما أطلبه منك».

التعبير الذي بدا على ملامحها أسكته: «أنا آسفة جداً، يا أبي، لكنني فكرت كثيراً. سأحزم أمتعتي وأبدأ حياة أخرى. يمكنني أن أخبرك بما حدث في ذلك اليوم الفظيع الذي فقدنا فيه سين، لكن هذا سيزيد الأمر سوءاً. لقد تذكرت كل شيء. ستكون أسعد عندما أرحل فأنت لم تستطع

www.elromancia.com

قط أن تحمل نفسك على النظر إليّ».

فقال وهو يصرف بأسنانه: «عودي إلى هنا يا شيللي، سأحاول أن أتحدث إلى هذا الشاب».

فقالت تنبهه: «لا تتوقع أن تتمكّن من التغلب عليه بسهولة مثل فيليب».

* * *

لم تكن نهاية الإجتماع حسنة. ولم يكن بروك في حالة تمكّنه من التعاطف مع هذا الرجل الذي سبب لشيللي كل ذلك الحزن. ورغم أنه كان مهذباً، إلا أن العداء ظهر في عينيه.

أما باتريك لوغان فقد وجد الشاب مهذباً رغم عجرفته وكبريائه. لكن أمراً واحداً كان مؤكداً، وهو أن بروك تايسون ليس ممن يتخلّون عن الآخرين. ولعل الأب لم يكن كذلك، هو أيضاً. إن رجلاً مثل ريكس كينغزلي قد يفعل أيّ شيء... حتى تلطيخ يديه بالدماء.

كانت الصدمة التي تملكت شيللي من دون حدود حين أخبرها بروك عن حقيقة اختفاء أبيه. أخذت تنظر إليه بقلق، فقد بدا بروك مخيفاً وسألته: «ما الذي ستفعله؟ أتريد أن تنتقم؟».

وكانا قد وصلا إلى حدود «مولغاري» فقال متوتراً: «أما كنت لتفعلي لو كنت مكاني؟».

فقالت ببساطة: «أنتظر حتى يهدأ قلبي. لا بد أن ألمك شديد».

بقي لحظة لا يستطيع الكلام وقد أنهكته المشاعر، لكنه حاول أن يتغلب على ذلك: «ألم ورعب. ومع ذلك، انزاح حمل ثقيل عن كتفي. فأنا أعلم الآن أن أبي لم يهجرنا. لا بد أنه تواجه مع كينغزلي فجاءت النتيجة فظيعة. كان طبع جدي مخيفاً وقد كره أبي منذ البداية».

أخذت تتأمل جانب وجهه ثم سألته: «هل أنت وفيليب فقط على علم بالأمر؟».

- وأنت طبعاً. يجب أن تعرفي كل شيء عني، السيء والجيد. في عقلي

صوت فظيع يذكرني بأن في عروقي دم كينغزلي.

- لا تدع ذلك يعذبك، يا بروك. أنتما مختلفان تماماً. إنني أستأمنك على حياتي. لا أشك في قدرتك على الحب أو الرحمة. أمّا جدك فقد باع روحه للشيطان.

فانفجر ثائراً: «لنأمل أن يكون الشيطان قد أخذه الآن».

وضعت شيللي يدها على ذراعه تهدئه: «حسناً، لقد غادر إلى الأبد. وهو لن يزعجك بعد الآن. يمكنك أن تعلن جريمته أو تبقى صامتاً».

- بالصمت يمكنني أن أحمي أسرتي الحالية والأسرة التي أرجو أن أنشئها يوماً ما. من منا يحب أن يعلم أن جده اقترف جريمة كهذه؟ لن أنسى هذا أبداً وفيليب لن ينسى أيضاً. سيبقى هذا هاجسنا طوال حياتنا. لكن كينغزلي نجا من العقاب، أليس كذلك؟

- لا، ما دام سيقابل خالقه. وسيكون جدك مسؤولاً عن الأعمال السيئة التي اقترفها طوال حياته.

أخذ يحدق إلى الأفق الأرجواني، حيث بدا الضباب كالذهب المعلّق فوق قمم التلال: «أخبرني فيليب أنه يريد أن يتخلّى عن «مولغاري». ولكن هذا الحديث ناتج عن الصدمة».

- أنا أيضاً أظن ذلك.

تملكها الاضطراب لما سمعت فيما هز هو رأسه: «مولغاري» هي الأرض والأرض أبدية. نحن أوصياء عليها فقط».

- لا بد أن عثورك على أبيك بذلك الشكل شكّل صدمة لا تُحتمل. ليتني كنت معك!

كانا جالسين تحت شجرة وقد أراحت رأسها على كتفه، متلهفة إلى التخفيف عنه.

فقال بصوت عميق مليء بالشكر: «أنت هنا الآن».

تأثرت شيللي على الفور ووجدت نفسها تسأله: «ألا أعقّد الصورة فقط؟».

- شيللي، ثمة تعقيدات كثيرة من حولنا، لكنك تساعدينني على التعقل. في الواقع، أنا واثق من أنني لا أستحقك. لدي مشاكل عليّ أن أتغلب عليها قبل أن نهتم بحياتنا. وحالياً، لست واثقاً تماماً أيّ اتجاه يجب أن أسلك. لدي قضية قوية لكن الإجراءات القضائية تكلف الكثير، وهذا ما يتكل عليه فيليب وفرانسيس.

قالت وهي تفكر في المكافأة من «كنز كلايرون»: «سأقف إلى جانبك إذا شئت».

في الواقع، جاءت المكافأة أكثر بكثير مما توقعت، وأضافت بحزم: «بصفتي صديقة، لا أريدك أن تشعر بأي التزام نحوي وبأنك مدين لي كما لا أريدك أن تشعر أنني لا أستطيع العيش بدونك وأنني سأنتحر إذا اتخذت حبيبة أخرى».

- هل ستفعلين هذا؟

ولأول مرة يشرق وجهه بالابتسام.

- كلا.

أحنى رأسه على رأسها وسأل: «ماذا ستفعلين إذن؟».

- سأنهار تماماً، لكنني سأرحل بعيداً فلا تعرف عني شيئاً.

فقال متحدياً: «وإلى أين تذهبين بحيث لا أعثر عليك؟».

- سأفترض دوماً أنك ستفكر في البحث عني عندما تستقر الأمور.

فقال بجفاء: «تعلمين أن حديثك هذا كلام فارغ».

- أحقاً؟

كانت تعلم أن ما بينهما جميل لكن هل ستتمكن من الحفاظ عليه؟

أجابها بصوت متوتر: «ظننتك تعرفين ذلك الآن».

وفجأة انهمرت الدموع من عينيها، فسألها: «شيللي، هل كنت قاسياً معك؟».

وأخذها بسرعة بين ذراعيه مضيفاً: «لم أكن أقصد ذلك، ما من شيء يهمني أكثر منك».

فنظرت إلى عينيه الرائعتين: «أتريدني أن أصدق ذلك؟».

- طبعاً.

* * *

كانت يولا جالسة إلى طاولة المطبخ تبكي بهدوء بعد أن طردتها سيدتها من العمل، حين عادت الذكرى إلى ذهنها فجأة وبمعجزة.

لم تخفِ الوصية في المزهرية، بل في خزانة الأدراج الصينية. لم تستطع أن تصدق أنها نسيت المكان الذي أخفت فيه الوصية رغم كل جهودها في التذكر. يا لقوة العقل الغامضة! لا بد أنها ستتذكر لاحقاً المكان الذي خبأت فيه حلية أمها الذهبية.

قفزت يولا من على كرسيها، شاعرة بالأمل يتفتح في نفسها. إذا كان هناك من يستحق التعويض، فهو بروك لما عاناه هو وأمه الجميلة كاترين من الآلام. إن ذلك الوغد العجوز مدين له بذلك. كانت يولا تعلم ما ساهمت به أموال أسرة بروكواي، ميراث أمه عن أمها، لإنشاء أمبراطورية كينغزلي.

* * *

وما إن دخل بروك وشيللي إلى المنزل من الباب الأمامي حتى هرعت يولا إليهما تبشرهما وعلامات النصر تعلو ملامحها المتشنجة.

كانت يولا تفكر في مدى السعادة التي ستتملكهما، جاهلة اكتشاف بروك المأساوي. لم تكن نادمة على الإطلاق على تصويرها مستند المحامي خفية وهي مستعدة لأن تقسم بأن الله أمرها بأن تفعل ذلك.

ومع ذلك، تحيّرت عندما قرأت الوصية. كان بروك الوريث الوحيد، ولم تأتِ الوصية على ذكر أيّ شخص آخر... حتى أصدقاء الأسرة، والخدم بمن فيهم هي، ما يقضي على إرثها. لكنها لم تهتم، لأن بروك لن يطردها أبداً، وكانت واثقة تماماً من ذلك.

يا له من رجل غامض غير عادي! لكن، لعله افتقد في النهاية إلى القوة فجاءت وصيته قصيرة مبتورة. كان بروك ضحية قسوته. وبما أنها

www.elromancia.com

تعرف بروك جيداً، فقد كانت واثقة من أن بروك سيفعل ما هو مناسب نحو ابن خاله فيليب، لكنها تمنت، من كل قلبها، ألاّ تحصل أمه فرانسيس على شيء. إنها امرأة فظيعة... فظيعة.

ألقى بروك على مديرة المنزل نظرة ثاقبة: «ما هذا، يا يولا؟».

فقالت متلعثمة: «لقد... لقد وجدتها».

أمسك بروك بيد شيللي بعنف وهو يقول للمرأة: «ثم؟».

- كنت سعيدة فقط، قبل أن أجد الوصية، ليتني قرأتها. أنت ورثت كل شيء.

وابتسمت لشيللي بسعادة، فنظر الإثنان إليها وكأنهما لم يفهما شيئاً مما قالت ثم سألها بروك بصوت أجش وقد شحب وجهه: «وماذا عن فيليب وأمه؟».

فهمست يولا: «لا ذكر لهما».

لم يستطع بروك أن ينتظر أكثر: «عليّ أن أرى هذه».

واجتاز الردهة جاراً شيللي معه. كان يريدها... يحتاجها، وكان الضغط على يدها يريحه: «لا بأس، أين الوثيقة؟».

فقالت يولا وهي تركض خلفهما: «إنها حيث أخبرتك، يا بروك. لا تقلق، فهي في المطبخ، لم أكن لأدعها بعيدة عن نظري».

وقف بروك فجأة وحدّق إلى وجه شيللي يسألها: «وهكذا، من تحبين؟».

رفعت وجهها إليه، وإشراقة فجر جديد تزيح الغيوم السوداء بعيداً. ورأت نفسها فجأة عروساً تغمرها سعادة لم تعرفها من قبل، وحس بالانتماء لا مثيل له في العالم.

سألها وهو يرى أن مشاعرها تمنعها من الجواب: «أتحبينني؟ هيا، انطقي يا شيللي. قولي أنا أحبك يا بروك تايسون رغم أنك رجل صعب للغاية. قولي إنك تحبينني وإنك ستمضين بقية العمر معي، أقسمي على ذلك، يا شيللي. قولي إن فكرة فقدانك لي تخيفك».

كان صوته جاداً للغاية وتوترت ملامحه وبدت عيناه بتألق الماس.

وبرقة فائقة، وقفت على أطراف أصابعها، وطوقت عنقه بذراعها: «أنت تملأني بالعجب، يا بروك تايسون. الحب؟ يا له من معجزة، لا أصدق أنني وجدته. طبعاً أحبك. لقد خلقني الله لكي أحبك وسأحبك طوال حياتي».

- وخلال الأبدية.

وأحاطها بذراعيه متجاوباً مع مشاعرها. وعندما تقابلت أعينهما، ساد بينهما صمت طويل، وشعور قوي بالالتزام ببعضهما البعض.

انفجرت يولا بابتسامة عريضة: «هيا، عانقها! عانقها».

هذان الشابان الجميلان يستحقان بعض السعادة في الحياة! وعادت تردد: «عانقها، يا بروك، عليك أن تعانقها. هيا...».

- شكراً، يا يولا.

ومنحها ابتسامة مدمّرة بعثت الاحمرار في وجهها ثم أخذ يلامس خدّ شيللي الناعم قبل أن يعانقها.

إنّ حبه هذا مليء بالحنان والرغبة... حبه الغالي هذا... كيف أمضى حياته من دونه؟ من دون حب شيللي؟ من اليوم فصاعداً ثمة عالم جديد عليه أن يغزوه. ما ينتظرهما رائع، وهو يعلم أن بإمكانه أن يحقق المعجزات ما دامت شيللي بجانبه.

هذه الأشهر المحمومة الأخيرة شكّلت رباطاً وثيقاً بين القريبين، فقد توصلا إلى اتفاق حصل فيليب بموجبه على قسم لا يُستهان به من ممتلكات كينغزلي، بينما بقيت السيطرة لبروك. وقد انتقل فيليب للعيش والعمل في مركز «ستراندواي». وقد أصبح هذه الأيام رجلاً مختلفاً، لكن شيللي اشتبهت في أنه سيحتفظ لها بمكان في قلبه على الدوام.

ورغم أن بروك أصبح الآن صاحب السلطة، إلاّ أنه لم يقم دعوى ضدّ والدة فيليب وعشيقها المحامي جيرالد متيلاند. لم يكن هذا قراراً سهلاً لكنه قدّم مصلحة الأسرة على مصلحته. وقد نالت فرانسيس نصيبها من ابنها فيليب مع إنذار بأن تمكث بعيداً. أمّا المحامي جيرالد متيلاند فأرغم على الاستقالة من شركته بحجة إراحة أعصابه. أسرار العائلات كثيرة، لكن على العدالة أن تنفّذ.

أثناء الاستعداد للزفاف، تغيّر منزل «مولغاري». فقد أحضروا جيشاً صغيراً من العاملين في الطلاء والديكور فتعاون مع شيللي التي وضعت رسوماً تخطيطية لا تحصى.

بدا كل هذا وكأنه تحقيق لحلم، لا سيّما بعد أن أخذ المصممون إبداعات شيللي على محمل جدي. وراحوا يقولون لها بإعجاب صادق: «يمكننا أن نمنحك عملاً في أي وقت».

لكن وظيفتها في الحياة هي أن تصبح شريكة كاملة لبروك. زوجة وأم وصديقة. كانت تستشيره على الدوام، لكنه كان مشغولاً بشؤون كينغزلي، فاعتاد أن يقول لها: «الأمر بسيط، ما تريدينه أنت أريده أنا. وأنا لا أقول هذا لأناس كثيرين».

في الواقع، لطالما انتقد ذلك المنزل الفخم القديم الكئيب، وطالب بأن يدخل إليه الضوء والهواء النقي. ومن بيت كينغزلي الفخم، وُلد منزل جديد.

* * *

في الساعة الثالثة بعد الظهر، راحت الموسيقى تعزف في غرفة

١١ - بين الماضي والمستقبل

مركز «مولغاري» بعد أربعة أشهر.

في الجانب الآخر من غرفة النوم الفسيحة رأت شيللي صورتها في المرآة الكبيرة. بدت أجمل من أي وقت مضى في ثوب زفافها الحريري العاجي اللون. كان مطرزاً باليد ويصل إلى الأرض بتفصيل شاعري رائع.

وضعت على رأسها نقاباً شفافاً طويلاً، ذا حاشية من قماش الثوب نفسه، وثبتته بورود صغيرة من القماش. أبرز النقاب لون شعرها الأحمر الذي تركته منسدلاً على كتفيها لأن بروك يحبه على هذا النحو. حبه العميق لها ما زال يذهلها. بروك هو مستقبلها وحلمها وقلبها.

وضعت حول عنقها وفي أذنيها هديته إليها. كان قد قال لها وهو يقبّل وجنتيها: «مع بشرتك الناصعة، لا بد أن اللؤلؤ يناسبك».

وأي لؤلؤ؟ إنه الأغلى في العالم. لقد سافر إلى «بروم» ليختار لها هذه اللآلىء معلناً بزهو: «لا أريد أقل من هذا لعروسي».

إنهما يرسمان اليوم خطاً بين ماضيهما ومستقبلهما. الماضي بكل آلامه ومعاناته وعدم استقراره، والمستقبل الذي ينتظرهما، حيث السعادة والأمان.

اختارت وصيفتين لها. إحداهما هي صديقة طفولتها، نيكول ذات الشعر الأحمر مثلها، والتي عادت حديثاً إلى منزل أسرتها المشهور «مركز مارا» بعد سنوات عدة أمضتها في الخارج.

أما وصيفتها الثانية، فهي أختها أماندا.

كان فيليب شاهد العريس، أما «الإشبين» فهو دريك ماكليلاند.

الاستقبال الرسمية الواسعة. وضعت شيللي يدها على يد أبيها الذي بدا اليوم أفضل حالاً مما كان عليه منذ مدة طويلة، حتى وجه أمها بدا ناعماً جميلاً. منذ فتحت شيللي عينيها على الحياة وهي تشعر بحب بالغ لتوأمها، سين. وفي أعماقها شعرت بأن سين سيبقى دوماً في قلبها.

اشتدت يد أبيها على يدها، لكنه لم ينطق بأيّ كلمة. ما من حديث عن الحب، أو التماس للصفح. لكنه كان يحاول التواصل معها من خلال يده، وعليها أن تتقبل هذا.

توقفا عند العتبة فظهر أمامها عريسها الرائع مع شاهديه.

كانت كل خطوة تقرّب شيللي من بروك. علمت من استقامة قامته ومظهره أنه يحاول جاهداً ألاّ يلتفت إلى الخلف لينظر إليها.

عندئذ، أشرق وجهها بالابتسام وتألقت عيناها بنور رائع.

فلتبدأ الحياة! وهي مستعدة للتحدي.

www.elromancia.com